الأعلام من الأدباء والشعراء



عبد الله بن المقفع

حياته - آثاره - أدبه

إعداد
أسون بن محيي الدين الحنان



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



إعداد
مأمون بن محيي الدين الجنّان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ - تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

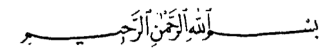
الإهداء

بعد طول مشقة وعناء أهدي هذا الكتاب لإخوتي محمد ، معتصم ، ماهر ، مازن ، ومصطفى .

وما المرء إلّا بإخوانه

كما تقبض الكف بالمعصم

أخوكم المحب مأمون الجنّان .



المقدمة

لم يكن الأدب العربي مجرد عبث بل كان تعبيراً لأمة عاشت أحداثاً وصراعات هائلة ، ناهيك عن مساهمته في تقديم أعظم دور حضاري في العلم عرفته الإنسانية عبر تاريخها الطويل . فلقد اتسع الأدب بأغراض جديدة أضاء بها مسارب المعرفة وكوَّن مواد خام للباحثين ليجدوا فيه وجهاً من وجوه اهتمامهم .

فمضوا لينهضوا به إلى درجة سامية ، تبلورت في آراء الأساتذة الأفاضل التي نشروها في بحوثهم المتعددة .

بيد أنه من الواضح للعيان صعوبة إعداد بحث يدخل في نطاق الخصوصية الشاملة والمعالجة الكاملة لجوانب الحياة كافة ، ولكنهم وفروا مادة علمية تؤدي دورها في باب من أبواب المعرفة ، مما أتاح مسوغات دراسية جديرة بكل عناية ورعاية .

وفي أدبنا العربي تتسع أبعاد الصورة لتساهم في تكوين ترابط الكلمة المكتوبة والدوافع المحرضة لكل أديب وخوضه هذه التجربة فضلاً عن غوصه في عمق الكلمات بالفهم والمعرفة . وما هذه الدراسة إلّا لإضاءة جانب من جوانب أديب كان في طليعة رجال عصره أدباً وفناً وتصنيفاً .

وتجدر بي الإشارة إلى ما اقتضته مني هـذه الدراسـة من طريقـة انتهجتها في تقسيم البحث إلى عدة فصول :

ـ **الفصل الأول** : خصصته في ألوان الحياة العامة في عصره .

ـ **الفصل الثاني** : كان رصداً لسيرته وآثاره .

ـ **الفصل الثالث** : دراسة جوانب أدبه وفنه .

ـ **الفصل الرابع** : النثر الفني في الأدب العربي .

ـ **الفصـل الخـامس** : كتـاب كليلة ودمنـة ومـوقفـه من التـراث العالمي .

الفصل السادس : خاتمة وبعض نماذج من أعماله .

ولقد وضعت ثبتاً بأسماء المصادر والمراجع ومؤلفيها التي كـانت لي عونـاً في بحثي هـذا مـرتبـة حسب التسلسـل الأبجـدي ، وقـد شـرحت مـا احتـاج إلى شـرح من ألفـاظ ومعـاني لكيـلا أدع بين القارىء والاستمتاع بفن هذا الأديب عقبة من ألفاظ قد تكون غريبـة عليه .

وهناك أمور ينبغي الإشارة إليها وهي أنني قمت بتـرجمة كـل من ورد اسمه أديباً كان أو غيره ثم عرضتها عرضاً وثائقياً خدمة للبـاحث وإشاعتها ، وقد أشرت إلى الأماكن التي رأيت ضرورة الإشارة إليها لاستكمال قراءتها وتتميماً لروح النص .

ولا يسعني في هذا المقام إلّا الاعتذار عن كل هفوة غير مقصودة قـد أوقعني فيها النسيـان أو الغفلة . وإني أتقدم بـالشكـر والعـرفـان

بالجميل لكل من أسهم في إخراج هذا البحث وأعانني على تـذليل عقباته جزاهم الله جميعهم كل خير .

هـذا مـا حـاولت صنعـه ولا أدعي أنني بلغت في هـذا كمـالاً فالكمال لله وحـده ولكنها محـاولة آمـل أن تؤدي ما هـو مطلوب من تسليط ولو بعض الضوء على هذا الأديب الذي بلغت مؤلفاته شهـرة واسعـة وآفاقـاً عظيمـة . وإن كان ثمـة شيء يذكـر فهو ثَنـائي على أسـاتـذتي الـذين منهم تعلمت وعلى كتبهم عـوَّلت ومن آثـارهم اقتبست غفر الله لهم ولي آمين. والله من وراء القصد .

مأمون بن محيي الدين الجنَّان

دمشق ٢ / ١٢ / ١٩٩٢

الفصل الأول

الحياة السياسية :

عرف العصر الأموي كثيراً من الثورات السياسية التي شنّها الخوارج والزّبيريون والطالبيون ، وكانت تهدف كلها إلى انتزاع الحكم من بني أميّة ، لكنّ الأمويين قد تصدُّوا لهذه الثورات وخنقوها جميعها ، حتى استطاعوا أن يقضوا قضاءً نهائياً على الخوارج والزّبيريين ، وأن ينكلوا بالطالبيين أكثر من مرة وعلى الرغم من الازدهار السياسي والاقتصادي والعسكري الذي عرفته الدولة الأموية في بعض عهودها ، فإن الدولة بدأت تضعف منذ مطلع القرن الثاني للهجرة ، وفي أيام « مروان بن محمد »(١) آخر الخلفاء الأمويين. بلغ هذا الضعف ذروته ، بعد أن قتل هذا الأخير «إبراهيم بن محمد ابن حفيد العبّاس » فنهض أبو العبّاس عبد الله(٢)

(١) هو مروان بن محمد (٧٢ هـ - ١٣٢ هـ) ولد في الجزيرة بويع له بالخلافة في دمشق أوقع بالخوارج وقضى على خليفتهم الضحّاك بن قيس الشيباني ، هزمه العبّاسيون في معركة الزاب وقتل بالقرب من البوصير « مصر » يعرف بمروان الحمار لجرأته في الحروب - وبالجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم .

(٢) هو عبد الله بن محمد أبو العبّاس السفّاح أول الخلفاء العبّاسيين (١٣٢ هـ - ١٣٦ هـ) ولد ونشأ بالشراة بين الشام والمدينة (١٠٤ هـ) بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة، اتخذ الأنبار عاصمة له فجددها وأقام فيها القصور فدعيت بالهاشمية نسبة إلى هاشم جد الأسرة توفي بالجدري .

أخو إبراهيم إلى خراسان فبايعه أهلها بمرو بدل أخيه ثم سار في موكب إلى المسجد فتلا عليهم خطبة حافلة ، وقد تيسر لحركة « أبي العباس السفاح » النمو وذلك ببث دعاته في أنحاء البلاد ولا سيما في العراق وفارس ليجمعوا حوله المؤيدين ويضرموا نار الثورة .

وكان من أقوى المؤيدين له رجل فارسي يدعى « أبا مسلم الخراساني »[1] تزعّم جماعة الفرس الناقمين على الحكم الأموي وجنّد منهم خمسة عشر ألف جندي وسار بهم لمساعدة السفّاح . وكانت المدن العراقية تسقط في أيدي العباسيين واحدة تلو أخرى . حتى التقوا بالجيش الأمويّ عند نهر الزاب[2] ونزل مروان حين القتال ففزع الجواد وخاض وسط المقاتلين فظنوا أن مروان قتل فاختلّت صفوف العساكر الشامية فهرب مروان واجتاز بسرعة جزيرة النهرين وفلسطين وسار إلى الديار المصرية حتى قتلوه في كنيسة قبطية وحملوا رأسه إلى الكوفة[3] .

---

(١) هو أبو مسلم الخراساني توفي (١٣٧) وقائد كبير كان أحد أقطاب الحركة الدينية السياسية التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العبّاسية حارب تحت راية العبّاسيين فاضل مرو (١٣٠ هـ) والكوفة قتله المنصور الخليفة العبّاسي الثاني .

(٢) نهر الزاب : رافد من روافد دجلة . .

(٣) انظر في هذا الصدد خلاصة تاريخ العرب لسيديو ١٠٦ دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ .

وكان الفضل الأكبر في انتصار العباسيين وانهزام الأمويين عائداً إلى جند الفرس وتنظيمهم وبلائهم الحسن في تلك المعركة . أما الأسباب التي جعلت الفرس يحاربون إلى جانب بني العباس فمتعددة أهمها :

- نقمة الفرس على بني أميّة بسبب عصبيتهم واحتقارهم للموالي.
- شعور الفرس بشيء من الذل القومي تحت السيادة العربية.
- حنينهم إلى أمجادهم السالفة وإلى عهود السيطرة التي كانت لهم قبل الإسلام .
- تشيعهم لآل البيت، واعتبار الأمويين مغتصبين للخلافة .
- سعيهم إلى المشاركة في السلطة والحكم عن طريق المشاركة في نصرة العباسيين والقضاء على بني أميّة .
- سعيهم إلى التساوي مع العرب والوقوف أمامهم وقفة الند للند.

إن انتصار العباسيين على الأمويين في معركة الزاب بفضل المساعدة الفارسية لم يكن في الحقيقة سوى انتصار للفرس على العرب وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة جداً في سياسة الدولة العباسية وفي تكوينها المجتمع العباسي وفي مجرى التاريخ العربي بصورة عامة . وبعد استقلال العباسيين بالحكم مع بروز النفوذ الفارسي جاء المنصور[1] وقام بعزل ذوي العشائر عن القيام بتدبير

---

(١) هو عبد الله بن محمد أبو جعفر ولد في الحميمة (٩٥ هـ) خلف أخاه السفّاح =

المصالح ، غير آبه بصداقة الناس بل أطاح بكل من خشي طمعه في الخلافة ولو خدمه سابقاً كالأمير عبد الله وأبي مسلم الخراساني المدمر لبني أميّة فانقاد إليه الناس واحترموه كما شاء(١) .

لقد كان المجتمع العباسي في العصر الأوّل مسرحاً للصراعات العنصرية والتفاعلات الاجتماعية والحضارية والفكرية وقد قويت فيه الكثير من الحركات الفكرية التي تجلّت في صراع سياسي واجتماعي وديني وفكري بين العرب والعجم ، ولقد كان هذا العصر هو عصر الزهو والقوة ، وكانت قوة الخلفاء الحربية تناسب أهمية دولتهم .

وبعد الفتح طبقوا العرب نظام الرق والولاء ، فكانت الجواري توزع على الفاتحين وتباع في أسواق المغنيين والنخاسين ، أو باعة الرقيق ، وتُهدى كما تهدى الطرف الثمينة والمال والمتاع ، ونشطت التجارات والصنائع وتجلى هذا التطور في طبقات المجتمع ونتج عن ذلك توالد اخلاقي وفكري في التقاليد والأزياء والعمران والمآكل والمشارب والملابس والأثاث والغناء واللهو والترف وكثرة الجواري ـ حتى غصت بيوت المسلمين بأولاد الجواري حتى أصبح

= انتصر على عمه وأخضع العلويين وقضى على فتنة المقنع في فارس بنى بغداد ودعاها دار السلام نظم الشؤون الإدارية والمالية والبريد ، توفّي محرماً بالحج ، لقب بالمنصور لأنه قاتل وهو شاب مع أعيان عائلته .

(١) انظر كتاب خلاصة تاريخ العرب لسيديو صفحة (١٠٨) دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ .

البيت الإسلامي مجتمعاً لأشخاص ينتمون إلى أمم مختلفة ويستشهد عبد اللطيف حمزة بالمثال التالي في بيت المنصور : « . . . فقد كانت فيه « أروى » بنت منصور الحِمْيَري ، وكانت يمنية ، كما كانت فيه أمة كردية كان المنصور قد اشتراها وتسراها ، وأخرى روميّة وامرأة ثالثة من بني أميّة قيل إنّه أولدها بنتاً تسمى العالية[1] ــ ولقد انتشرت الخلاعة والمجون والزندقة والزهد وفقدان التوازن الاجتماعي مما يجعل هذا العصر عصر المتناقضات .

لقد عرف ذلك العصر ولا شك تفاعلاً لغوياً وثقافياً واسع المدى فقد تمازجت فيه الثقافات وتطورت الحياة العلمية ـ وأنتج هذا التفاعل شعباً جديداً وعقلاً جديداً وأدباً مستحدثاً وفلسفة مستحدثة ، وذلك باتصاله بالفارسي والرومي ، والشامي والمصري ، والعراقي ، والمغربي ، والهندي ، والسندي ، ولكل من هؤلاء ذوقه ونفسيته ، وخلقه وعقليته ، وخياله وعقيدته ، ودمه وجنسيته ونظامه وسياسته[2] ثم ازدهرت حركة الترجمة ، وعني الخلفاء والوزراء والولاة بالعلوم والآداب ونقلت إلى العربية علوم الفرس واليونان والهنود وفلسفاتهم وثقافاتهم التي كانت روافد تصب كلها في بحيرة بغداد .

الحياة الاجتماعية :

تميز المجتمع العبّاسي بالترف والغنى في البيئات الحاكمة فقد

---

(١) انظر كتاب ابن المقفّع لعبد اللطيف حمزة ٦ دار الحديث للنشر .
(٢) المرجع السابق . . . ٣ .

روى المؤرخ العربي أبو الفداء[1] استقبال أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم وما فيها من ترف وعظمة ما يطول شرحه ، وحكي أن الوزير المهلبي[2] كان يشتري وروداً بألف دينار يزين بها مجلسه ويطرحها في بركة القصر ، وقيل عن سيدة من البيت المالك أنها حشت بالدر فم شاعر مدحها فبيع حشوه بعشرين ألف دينار ، ورووا عن المقتدر أنه كان في قصره شجرة من فضة زنتها خمسمائة ألف درهم ، وأن السيدة زبيدة زوجة الرشيد كان يجمد المسك والعنبر في نعالها ، وروى عن الغلمان أنهم كانوا يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، وقد تغزل بهم بعض الشعراء كأبي نوّاس[3] ، وكان أيضاً من الرقيق جوار حسان يقصصن شعورهنّ ويلبسنّ ثياب الغلمان ويسمّين الغلاميات .

أما في البيئات الشعبية فتميزت بالفقر والحرمان ، مما حدا

---

(١) هو إسماعيل الملك المؤيد أبو الفداء (١٠٧٣ ـ ١٣٣١) أميرعربي مؤرخ وجغرافي صاحب حماة له « تقويم البلدان » و« المختصر في أخبار البشر » .

(٢) هو الحسن بن محمد المهلبي الوزير توفي (٣٥٢ هـ) أديب شاعر من كبار الوزراء يعود نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة له شعر رقيق مدحه الزاهي .

(٣) هو الحسن بن هانيء أبو النوّاس (٧٥٧ ـ ٨١٤) ولد في الأهواز من كبار شعراء العصر العبّاسي لقب بشاعر الخمرة عاقر الخمرة وأسرف في اللهو ثم تاب في آخر أيامه له ديوان « أجود شعره في الخمريات » .

الشاعر أبا العتاهية[1] إلى أن يخاطب هارون الرشيد بقصيدة يمثل بها شقاء الرعية في زمانه ، ومما قاله :

من مبلغ عني الاما م نصائحاً متواليهْ
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غاليهْ
وأرى الأرامل واليتا مى في البيوت الخاليهْ
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريهْ . . .

ولقد أثر الفقر والحرمان في بعض الجماعات التي عضها الفقر الشديد والبؤس القاتل تأثيراً نتج عنه نزعة ونقمة على الأوضاع مما حمل ابن الرومي[2] في قصيدة له على التجار وشرطة الدولة وكتّاب دواوينها لما يتمتع به هؤلاء من رغد العيش بينما هو وأمثاله يعانون الحرمان والشقاء :

وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس ، والأحباب
أصبحوا يلعبون في ظل دهر ظاهر السخف مثلهم لعّاب

---

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم العنزي بالولاء أبو العتاهية (٧٤٨ - ٨٢٥) شاعر مكثر سهل الأسلوب ولد بعين التمر بالعراق أو بالكوفة كان أبوه حجّاماً كني بأبي العتاهية لميله إلى المجون والتعته ، أغلب شعره في الزهد والتنكر للدنيا . بلغ منزلة عالية عند الرشيد .

(٢) هو علي بن العباس ابن الرومي (٨٣٦ - ٨٩٦) شاعر بغدادي من أعظم شعراء العباسية بل من أعظم شعراء العربية ولد في بغداد من أب رومي وأم فارسية أثر تراثه الرومي الفارسي في عبقريته فجاء بشعر غريب الأسلوب والفن عن أهل زمانه تغنى بجمال الطبيعة .

لهف نفسي على منـاكيـر لـلنكـ ـر غضابٍ ذوي سيوفٍ عضاب(١)

إلى جانب هذا الاضطراب نجد العصر العبّاسي يموج بفرق تتمثل بـالمسلمين المتعـدديّ المـذاهب والنصـارى المختلفي النـزعـات واليهود والصابئـة والمانـويين المتبايني الأفكـار وبأجنـاس وقوميـات متعـددة تتمثل في الفـرس والهنود والسـريان وغيـرهم ، وبنـزعـات سياسية واجتماعية وعنصرية كثيرة أعنفها الشعوبية .

الحياة الاقتصادية :

ازدهرت الحياة الاقتصادية بـوجه عـام في العهد العبـاسي وروى مؤرخو العرب أن دخل الخلافـة السنوي بلغ مئتي مليـون فرنـك(٢) أي مبلغاً عظيماً في ذلك الـزمن . واتّسع نـطاق الزراعـة والصناعـة والتجـارة وأنشئت مصانـع للنسائـج الحريـرية في المـوصـل وحلب ودمشق . وصار العرب يستغلون الممالح ومناجم الكبريت والـرخام والحديد والرصاص بطرق فنية . وقد عني بنو العبّاس بإصلاح الريّ لتنشيط الزراعة ، وكان ما بين النهرين ، دجلة والفرات من أخصب بقاع المملكة بالترع والمجاري .

---

(١) مناكير جمع منكر ، اسم الفاعل من أنكر . والمنكر للشيء هو الذي يأباه ويرفضه، والنكر: الأمر المستقبح من ظلم ورذيلة . سيوف عضاب، سيوف قاطعة ، يقول : ما أشد شوقي إلى قوم يرفضون هذا الظلم ويهبون غاضبين شاهريـن السيوف القاطعة .

(٢) راجع بهذا الخصوص كتاب حضارة العرب د . غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ١٩٦٤ .

وقد ارتقت صناعة العطور والطيوب وكثر الإقبال عليها في ذلك العصر وخرجت صناعة النسيج عن بساطتها الأولى فعرف العرب أصنافاً جديدة من الأنسجة تلائم حياة الترف والرخاء ، وتفننّ في الصنع والتحلية والتوشية بالذهب والفضة ، ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقل انتظاماً من البريد والمالية وكانت للتجار نقابة مسؤولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس وكانت إدارة الدولة موزعة بين أربعة دواوين وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان رقابة الدخل والخرج .

وكانت جميع أوامر الخلفاء تكتب في سجل مصون ليرجع إليها فيه من يأتون بعدهم .

وأما التجارة فقد ساعد على ازدهارها ، انتشار الصناعة والزراعة واتساع رقعة المملكة ، حتى صارت بغداد والإسكندرية من أهم المراكز التجارية آنذاك ، وكانت قوافل التجار وسفنهم تنقل الحاصلات والبضائع إلى مختلف أجزاء المملكة الإسلامية وإلى العالم . ومن المراكز التجارية في ذلك العصر : البصرة وعدن ودمشق وعُمان .

ولا ريب في أن العرب أفادوا كثيراً من النظم الاقتصادية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة واقتبسوها ، كأنظمة الريّ . والخراج وإنشاء الطرق والمواصلات . وقد أسهمت الدولة العبّاسية في تنشيط العمران فقد بلغ الذروة من حيث جمال الهندسة والسعة فخططت المدن الفسيحة وشيدت فيها القصور والميادين والمساجد

والحمامات . وأبدوا من الزينة والزخرفة أعجب المناظر وعملوا أعمالاً فاخرة ونثروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم .

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الازدهار على صورة الحياة العامة فنرى فيه نماذج الشعوب وتفاعل الحضارات والثقافات وصراع الأجناس وحركة الشعوبية وطبقات المجتمع من حكام ومحكومين وعبيد وقيان ، وأريستوقراطية واقطاعية وتجار وموظفين وعامة الشعب ، كما نرى صورة للثقافة والعلم والمؤسسات والمفكرين ، وللعمران والأثاث والعادات والأزياء والتقاليد ، والبيئات الطبيعية والاجتماعية ما تشتمل عليه وتمتاز به ، وما من ظاهرة في الحياة العباسيّة إلا نجد لها منعكساً في أدب العصر شعره ونثره .

الحياة الأدبية :

كان العصر الأموي عصر نهضة أدبية كبرى تجلَّت في كل من الشعر والنثر والخطابة ، وكانت الخطوات التي خطتها الأعمال الأدبية واسعة النطاق وقد زاد في اتساعها عوامل كثيرة أهمها :

- سياسة الدولة الأموية فقد كان لهذه السياسة أثر مباشر في الشعر والخطابة والتدوين ، والنثر والمديح ، والرثاء والغزل .

- صراع الأحزاب الذي أدَّى إلى حرب كلامية شعراً وخطابة وتحريضاً ودفاعاً ومجادلة .

- امتداد رقعة الامبراطورية فقد أدَّى هذا الامتداد إلى تمازج في

الشعوب واختلاط الأجناس والعادات والتقاليد والأزياء واللغات ، فكان لذلك أثره في الحياة الاجتماعية التي انعكست في الأدب . وأثره في الحياة الفكرية ، وفي اللغة التي فُرض على جميع الشعوب التي فتحها العرب أن تتكلم بها ، وأن تجعلها لغة العلم والأدب والدين والكتابة .

وغير ما خفي ما لذلك من انعكاس على الأدب .

ـ تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية مما أسهم في تطوير الشعر الغزلي والوصفي والوجداني والخمري والمجوني .

ـ الحياة الدينية التي أثرت على وجهين : وجه الاهتمام ووجه الاستخفاف. فالاهتمام الجدي بالدين ساعد على اتساع الدراسات الدينية وتعمقها من تفسير القرآن إلى علم القراءات ، إلى الفقه ، إلى الجدل وعلم الكلام إلى رواية الحديث وتفسيره ونقده ، إلى القصص الديني والوعظ والإرشاد والخطابة الدينية والمناظرات .

والاستخفاف بالدين أدّى إلى انتشار اللهو والمجون والعبث وشرب الخمور وارتكاب الموبقات وطلب اللذائذ المحرَّمة ، والتغني بها على نحو ما نجد في شعر الوليد بن يزيد[1] والفرزدق[2]

---

(١) هو الوليد بن يزيد : (٨٨ ـ ١٢٦ هـ) الخليفة الأموي الحادي عشر كان ذا مواهب فنية بالشعر والموسيقى ميالاً إلى اللهو والمرح عاش في قصره بالبادية منصرفاً إلى الشعر والخمر . خلع وقتل .

(٢) هو همام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع الدارمي التميمي الفرزدق نحو=

وابن الرقيات[1] والغزل الحضري إجمالاً .

ـ تطور الدولة وتنظيمها اللذان أدّيا إلى إنشاء الدواوين وتعريبها وتطور فن الرسائل والكتابة الفنية إجمالاً ، وضبط سجلات الدولة ، وما إلى ذلك .

ـ يقظة العصبيات التي أذكت شعر السياسة القبلية وشعر الهجاء والنقائض .

ـ عناية الخلفاء بالأدب واللغة وعقدهم المجالس للسمر والتندر والشعر والتسلية ، وكانت مجالسهم تعج بالشعراء والمحدثين والنسّابين واللغويين والخطباء ، وزاد في ذلك أهمية كون الخلفاء أنفسهم من كبار الملمّين بالأدب واللغة ومحاسن الكلام يحرصون كل الحرص على ألا تخلو مجالسهم من حوار ونقاش وتنافس ، مما دفع بأصحاب الكلام إلى تجديده والعناية به ، وبالرواة إلى التنافس في كثرة المحفوظ وجودته وحسن عرضه .

وليس هناك مجالاً للمقارنة بين خصائص أدب هذا العصر أو ذاك إذ يُعد العصر العباسي عصر التطور والرقي والازدهار في

= (٦٤١ ـ ٧٣٢) ولد في البصرة من شعراء العهد الأموي قضى حياته في مدح الناس وهجوهم له نفس شعري قوي ولغة وافرة الألفاظ والتعابير اشتهر بالهجاء الذي دار بينه وبين جرير حتى آخر حياتها ٢٧ « ديوان » دونه محمد بن حبيب النحوي البصري ، « نقائض جرير والفرزدق » .

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات توفي نحو (٧٠٥) شاعر قريشي ناصر الزبيريين ثم والى الأمويين ديوانه يحوي أشعاراً سياسية تاريخية .

مختلف نواحي الحياة العربية ولا سيما في الآداب والعلوم . فلقد حفل بحركات ثقافية كبرى ، وتيارات فكرية ، نتجت عن التداخل الذي تمَّ بين الأمم ، وعن تفاعل الحضارات والثقافات والأنظمة الاجتماعية .

وكان لنقل العلوم والمعارف اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية ، ولتشجيع الخلفاء والأمراء والولاة للعلوم والآداب وبذلهم بسخاء في هذا السبيل ولإقبال العرب على هذه الثقافات والمعارف ينهلون منها ، ويتفاعلون معها ، ويؤلفون فيها ويضيفون ما يهتدون إليه من المكتشفات والحقائق . كان لكل ذلك أبعد الأثر في جعل العصر العباسي ، عصراً ذهبياً بالنسبة إلى الحياة الفكرية .

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة : « . . . إن النثر قد وثب في ذلك القرن وثبات واسعة وقفزات موفقة لأن النثر في الأصل لغة العقل والشعر لغة العاطفة » .

وقد ساعد طول الفترة التي حكم بنو العبّاس خلالها على اتساع النهضة العلمية والأدبية وتثقيفها وتعميقها ، إذ امتد عصرهم نيفاً وخمسمائة سنة ، إلا أن الحركة الفكرية لم تكن مسايرة لأحوال السياسة . فقد تعرَّض المجتمع العبّاسي للكثير من الهزات والأزمات السياسية . ولمظاهر الضعف والانحلال والتقهقر ، في حين أن الآداب والعلوم وسائر معطيات الفكر ، استمرت في ازدهارها المطَّرد الذي بدأت تباشيره في عهد بني أميّة وبلغ أوجّه في العصر العبّاسي .

والذي يعنينا في هذا المقام من هـذه الحركـات الفكريـة كلها ، نتاج الأدب شعراً ونثراً على اختلاف فنونه وأغراضه ، ومـا لحقه من مميـزات وخصائص كـانت وليدة ظـروف العصر ، والتـطورات التي نشأت عنها أو تأثرت بها .

اللغة العربية :

بلغت اللغة العربية ذروة الرخاء في العصر العبّـاسي فلقد كـانت العربية لغة رسمية في المجتمـع العبّاسي ـ لا في المنـاطق العربيـة وحسب ـ بل في بلاد فارس والهند والترك وسائـر الأقاليم الأعجميـة أيضاً ، كما أصبحت لغة العلم والأدب والفلسفة والدين لدى جميع الشعـوب ، فإذاً، النتـاج الفكري بمجمله يكتب بـالعـربيـة مـع أن معظم أصحابـه ليسوا من العـرب أمثال : الفـارابي[1] ابن سينا[2] ،

---

(١) هو = أبو نصر محمد الفارابي ولد في فاراب تركستان وتوفي في دمشق (٩٥٠) من أعظم فلاسفة العرب درس في بغداد وحران وأقام في حلب في بلاط سيف الدولة الحمداني لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو وكان متضلعاً في الرياضيات والموسيقى من مؤلفاته العديدة « الجمع بين رأي الحكيمين وقد حاول فيه التوفيق بين أفلاطون وأرسطو و« التوطئة في المنطق » و« السياسة المدنية » « وآراء أهل المدينة الفاضلة » و« كتاب الموسيقى الكبير» وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها وجوامع السياسة و« رسالة النصوص » .

(٢) هو أبو علي بن سينا عرف بالشيخ الرئيس ابن سينا ولد في «أفشنة» قرب بخارى (٩٨٠) وتوفي في همذان (١٠٣٧) فيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأطبائهم تعمق في درس فلسفة آرسطو وتأثر أيضاً بالأفلاطونية المستحدثة له=

الغـزالي[١]، ولقد استـطاعت هذه اللغـة أن تقوم بـأعباء الحـركات الفكرية كلها . وهنا يقول الدكتور غوستاف لوبون : « . . . ولكن ما انتهى إلينا من آثـار العرب في العلم والأدب . . . ومـا ورد في كتب مؤرخيهم يكفي لتمثّل حضارتهم »[٢] .

ـ وبـالجملة قد استعمـل الخلفاء العبّـاسين شـوكتهم في تـذكيـة عقـول العـرب وتنميـة معيشتهم فقـد أحـدثـوا كثيــراً من المكـاتب والمدارس التعليمية والمحال الإحسانية وأنشأوا مدائن بجوار بغـداد وطرقاً وخانات وأسواق وخلجاناً ومَساقي ميـاه وحضوا على اكتسـاب

ميول صوفية عميقة برزت في الحكمة الشرقية وهي عبارة عن فلسفته الشخصية من مؤلفاته المطبوعة : «القانون في الطب» و«الشفاء» في الفلسفة «والإشارات والتنبيهات» في المنطق ولا يزال قسم من تأليفه مخطوطاً في خزائن الكتب له في النفس القصيدة المشهورة ومطلعها .

هبـطت إليـك مـن المحـل الأرفـع ورقـاء ذات تـعـزز وتمـنـع

(١) هو أبو حامد محمد الغزالي توفي في طوس (٥٠٥ هـ) متكلم لقب بحجة الإسلام ولد بالقرب من طوس « خراسان » نشأ أولاً نشأة صـوفية ثم انصرف إلى دراسة الفقـه والكـلام والفلسفـة علم في المـدرسـة النـظاميـة ببغـداد وكتب « تهـافت الفـلاسفة » وفيـه كفر الفـلاسفة وبـدعهم له : إحيـاء علوم الـدين « المنقـذ من الضلال » .

(٢) راجع حضارة العرب ترجمة عادل زعيـتر للدكتور غـوستاف لـوبون صفحـة ١٧١ طبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤ ـ غـوستاف لـوبون « (١٨٤١ ـ ١٩٣١) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين .

التجارة وسائر الفنون حافظين الأمم المجاورة لممالكهم من الاضطرابات التي كانت زمن التعصب الإسلامي .[1] .

وبالجملة فقد استمرت الأصالة العربية بفعل تلك الظروف ، وقد تركت الثقافات الأعجمية عميق الأثر في علوم العرب وفلسفتهم ، ولكن آداب الأعاجم لم يكن لها مثل ذلك التأثير ، والسبب يعود إلى أن العرب لم ينقلوا آثاراً أدبية إلا ما ندر ، لأنهم لم يشعروا بحاجتهم إليها ، ـ فبقي معظم الآداب الأعجمية مجهولاً عندهم . ـ ولم يكن أدباء العرب وشعراؤهم يتّقنون لغات أعجمية ، حتى يتيسر لهم الإطّلاع على هذه الآداب ويتأثروا بها ، لذلك ظل أدبهم في مجمله أصيلاً ـ بعيداً عن التيارات الأجنبية ـ أما الأعاجم الذين نظموا شعرهم وكتبوا أدبهم بلغة الضاد ، فقد غلب عليهم الطابع العربي أيضاً وتأثروا بالاتجاهات العربية في هذا المجال ، فما أحدثوا فنوناً جديدة تذكر ، وإنما انحصر في تجديدهم ضمن القوالب التقليدية في المديح والهجاء والغزل والوصف والخمرة والمثل والحكايات وما إليها . وهكذا فإن العصر العبّاسي حمل إلى الأدب كثيراً من التجديد لكن ضمن الأطر القديمة ، ومن داخل الأصالة العربية .

التجديد في الأدب العربي :

هذه الظاهرة هي وليدة انتشار المعارف والعلوم واتّساع أفق

---

(١) راجع بهذا الصدد خلاصة تاريخ العرب لسيديو ١٠٩ طبعة دار الآثار بيروت .

التعليم وكثـرة الإقبال على التـدوين والدراسـة والبحث والتـأليف ، وعناية الناس بالحركات العلمية والأدبية وتشجيعهـا ، وتقديـر العلم والعلمـاء . وتـأسيس المكتبات ورواج أسـواق الكتب ممـا حمـل المؤلفين على الإكثـار من وضع الكتب . فقـد وضعـوا التـآليف في مختلف فـروع المعـرفـة في التـاريـخ والجغـرافيـة ، والفلك والـرياضيـات ، والطب والكيميـاء والصيدلـة ، والشعر والبـلاغـة ، والنحـو والصـرف ، واللغـة والنقـد الأدبي ، والقصص والـدين ، والفلسفة والسياسـة ، والأخلاق والاجتمـاع ، والزراعـة ، والمعادن ومـا إلى ذلك ، « . . . واتّسـع نطاق الـزراعـة والصنـاعـة . . . ووسّعت دائـرة التعليم العامّ واستـدعي الأساتـذة من مختلف أقـطار العالم . وبلغ علم الفلك درجة رفيعـة من التقدم وانتهى إلى نتـائج لم ينتبـه إليها الأوروبيـون إلا في العصر الحـاضـر[1] . ونقلت إلى اللغة العربيـة كتب علماء اليـونان والـلاتين ولا سيما كتب الفلسفـة والرياضيـات وصارت تـدّرس في جميع المـدارس ، وبحث العرب في آثـار القدمـاء . . . وأقدم العـرب على تلك المباحث ، التي لم يكن لهم عهـد بهـا ، بشـوق ونشـاط وأكثـروا من إنشـاء المـدارس والمكتبات العامة والمختبرات في كل مكان وكـانت لهم اكتشافـات مهمـة في أكثر العلوم . »[2] ويكفي أن يقـرأ المرء كتـاب الفهرست

(١) كقياس دائرة نصف النهار .

(٢) راجع كتاب حضارة العرب للدكتور غوستـاف لوبـون صفحة ١٧٣ تـرجمة عـادل زعيتر طبعة (البابي الحلبي ١٩٦٤) .

لابن النديم(١) ليعرف إلى أي مدى كانت حركة التأليف مزدهرة وإلى أي مدى بلغ التنوع في المصنّفات وضروب الثقافات .

ويقول سيديو « . . . وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية وترجموها إلى العربية وفتحوا ببغداد مدرسة « ألسن » لترجمة المترجمين . . . ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها مجاناً ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء وأنشأوا كتبخانات رخصوا الدخول فيها لمن أراد فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا ، وبنوا أرصاداً بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات . ومعامل كيماوية لاستكشاف النباتات . . . ومكثت المدرسة البغدادية على رونقها الباهر نحو مائتي سنة تقريباً »(٢) .

إزاء هذه الغزارة في الإنتاج والمعارف والتأليف ، لم يكن بد من تنوع الأغراض الأدبية والمقاصد حتى تشمل جميع وجوه العيش فتتناول السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين والفلسفة والشريعة والعلوم اللسانية والترجمات وضبط أمور الدولة في المراسلات والأنظمة والدواوين والجند . فوُصِّلَت ولايات الدولة بوسائل نقل

---

(١) هو محمد بن إسحاق أبو الفرج بن النديم توفي بعد (٣٩٠ هـ) أديب من أهل بغداد ولد وعاش فيها وكان كاتباً كأبيه فعرف بالوراق اشتهر بكتابه «الفهرست» .

(٢) راجع كتاب خلاصة تاريخ العرب لسيديو صفحة ١١٣ ـ وما بعدها طبعة دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ .

منتظمة وأُنشئت مرابط لتتمكن البُردُ بها من قطع المساوف الكبيرة على عجل وعُني بحمام الزَّاجل لربط ما بين المدن بالرسائل . . . وكانت إدارة البريد في بغداد من أهم وظائف الدولة »(١) .

ولم يتّسع معنى الأدب في عصر من العصور اتساعه في عصر بني العبّاس حتى ضم مختلف الشؤون وأصبح آخذاً من كل شيء بطرف ، وقد أقبل الأدباء على الثقافات الجديدة ينهلون منها ما وسعهم ، ويكتسبون معطيات عقلية وحكماً وبعداً في النظر وقدرة على التعليل والاستنباط ، وعمق التفكير ، وتوليد المعاني الجديدة ، فإذا الأدب العبّاسي أغنى مما سبقه من حيث المعاني والمضامين الفكرية ، يدلك على ذلك ما تراه في نثر ابن المقفع .

ومن حيث التفنن البياني فقد حفل الأدب العبّاسي بضروب من الزخرفة والعمل على إخراج الكلام إخراجاً فنياً مقصوداً ـ فتوفر أصحابه على صور البيان والبديع ـ وراحوا يعتنون بالاستعارات والكنايات وضروب المجاز ، يكثرون منها ومن السجع والجناس والتورية والطباق وسواها من المحسنات اللفظية والمعنوية . أما أسباب ذلك فتعود إلى أن الأدباء أرادوا ابتكارات جديدة في النواحي الأسلوبية توافق روح العصر في العمران والرخاء وتطور أسباب العيش،وأهم من فتح هذا الباب في الشعر مسلم بن الوليد(٢).

---

(١) راجع كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون صفحة ١٧٢ ترجمة عادل زعيتر .

(٢) هو أبو الوليد الأنصاري مسلم بن الوليد توفي (٢٠٨ هـ) شاعر من العصر العبّاسي الأول ولد ونشأ بالكوفة وتوفي بجرجان لقب صريع الغواني جدد شعره بتعمد البديع مع المحافظة على نسق الشعر القديم بالمعنى والصيغة .

الفصل الثاني

نسبه :

هو محمد عبد الله بن المقفّع(1) الكاتب المشهور واسمه رَوزبه بن دازويه فارسي الأصل عرف باسم عبد الله بن المقفّع لأن والده كان يعمل والياً على خراج فارس من قبل الحجاج(2) ، فزيّنت له نفسه أن يضم إلى ماله شيئاً من مال السلطان فضربه الحجاج على يده حتى تقفّعت - أيّ تشنّجت - فعرف منذ ذلك بالمقفّع وكان والده مجوسياً ، وكان على المجوسية أكثر عمره كأبيه وكان يكنى أبا عمرو ، ثم انتسب للملة الإسلامية في كهولته على يد عيسى بن عبد الله بن العبّاس وسمي عبد الله وكني أبا محمد . ولم يكن مسلماً صادقاً بل كان يبطن المجوسية .

مولده ونشأته :

ولد بفارس (٧٣٤ - ١٠٦ هـ) ونشأ فيها وتثقف بثقافة أهلها ثم

---

(1) انظر ترجمته : في الفهرست ١١٨ أخبار الحكماء ١٤٨ ابن خلكان ١ / ١٨٣ في ترجمة الحلاج ، خزانة الأدب ٣ / ٤٥٩ ويعرف عند الفرنج بلقب « Bidpaï » معجم المطبوعات العربية والمعربة - ٢٤٩ - مفتاح السعادة ١ /٢٧٣ البداية والنهاية ١٠ /٩٨ وذكره فيمن توفي سنة ١٤٥ .

(2) الحجاج بن يوسف الثقفي توفي (٩٥ هـ) .

انتقل به والده إلى البصرة وأصل أبيه من خوز[1] ببلاد فارس ، ولقد عمل والده على تنشئته على ما نشأ هو عليه من خدمة الدولة فدفعه إلى تعلم العربية وإتقانها عن طريق الإتصال بالأعراب ومخالطة بني الأهتم[2] المشهورين بالفصاحة ، وشهود المربد[3] .

وفي أخبار الحكماء : « عبد الله بن المقفّع كان فاضلاً كاملاً وهو أول من اعتنى ممن نسبوا إلى الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور وهو فارسي النسب ، ألفاظه حكيمة ومقاصده من الخلل سليمة ، ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة . وترجم كتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة . وله تآليف حسنة ومنها رسالة في الأدب والسياسة ورسالته المعروفة بالتيمية في طاعة السلطان » .[4]

ولم تمض سنوات حتى علا شأنه ، فاستخدمه الولاة عندهم كما استخدموا غيره من الموالي الذين يتّقنون لغتين . فكتب لآل

---

(١) في الفهرست لابن النديم : خوز مدينة من كور فارس .

(٢) هو خالد بن صفوان بن الأهتم توفي (بعد ١٣٣ هـ) من حصفاء العرب وخطبائهم المشهورين ولد في البصرة ونشأفيهاعلى يسر ، كان يجالس الخلفاء فيعجبون بكلماته السائرة وأجوبته المسكتة له أخبار كثيرة ذكرها الجاحظ .

(٣) المربد : من أشهر أحياء البصرة « العراق » كان قديماً سوقاً للإبل ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وبها كانت مفاخرة الشعراء ومجالس الخطباء .

هبيرة[1] ولما سقطت الدولة الأموية حاول الاستمرار في الكتابة لبني العبّاس ـ فاتصل بأعمام المنصور وكتب لهم ـ وكان ابن المقفّع تمت ثقافته في صناعة الكتابة على يد عبد الحميد الكاتب[2] متأثراً بطريقته، ذات الديباجة العربية والتفكير اليوناني، وبذلك جمع بلاغة العرب، وصنعة فارس، وحكمة اليونان[3].

لقد شهد ابن المقفّع الكثير من ظلم الحكم الجديد وأخذه الناس بالشدة وقتلهم بالظنة. فكان هذا حافزاً حوّله إلى كاتب ثائر ألّف عدّة كتب نقل بعضها عن الفارسية والهندية وابتكر الباقي من

---

(١) يزيد بن عمر بن هبيرة توفي (١٣٢) ابن السابق أمير العراق على عهد مروان الثاني حارب الخوارج قاوم الدعوة العباسية مدحه بشار بن برد قتله السفاح بواسط.

(٢) هو عبد الحميد توفي (٧٥٠) أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب العربي قيل إنه كان معلماً للصبية قبل أن يشتغل بالكتابة في بلاط هشام بن عبد الملك واصل عمله في عهد مروان الثاني الملقب بالحمار آخر الخلفاء الأموين في الشام. يزعم أنه توفي معه في «بوصير» له «ست رسائل» أشهرها الرسالة إلى الكتاب امتاز بلغته المتينة وأسلوبه الكتابية الرائع ضرب به المثل «بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد».

(٣) قال الأصمعي : قيل لابن المقفّع من أدبك قال : نفسي ، إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيته وإذا رأيت حسناً أتيته . ومن كلامه : شربت من الخطب ريا ولم أضبط لها رويا ففاضت ثم فاضت ، فلا هي نظاماً ، ولا نسيت غيرها كلاماً . البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٩٩ طبعة دار الكتب العلمية ١٩٨٧ .

كتبه وآثاره[1] : الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، الدرة التيمية في طاعة الملوك ، ورسالة الصحابة ، ولكن أشهرها كتاب كليلة ودمنة فهو كتاب وضعه الفيلسوف بيدبا[2] الهندي ـ لدبشليم ملك الهند ـ وجعله باللغة الفهلوية على ألسنة البهائم وهو يشتمل على الأخلاق وتهذيب النفوس ، ترجمه ابن المقفّع[3] وقد طبع كتاب كليلة ودمنة مراراً في بلاد مختلفة[4] وترجم هذا الكتاب إلى ٢٩ لغة ونظم شعراً أيضاً[5] وكان أكثر هذه الكتب التي وضعها ابن المقفّع دائراً حول ما ينبغي أن يسير عليه الملك إزاء الرعية وما ينبغي للرعية أن تكون عليه إزاء الملك ، وهذا مما جعل له حساد كثيرون وأغضب عليه الخليفة المنصور . فقتله بصورة بشعة .

---

(١) راجع : الفهرست لابن النديم (١١٨) مروج الذهب (٤٤) كشف الظنون لحاجبي خليفة ٣ / ٢١٢ رسائل البلغاء (١١٨) ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة (٢٠٢) . تاريخ طبرستان .

(٢) معناه بالسانسكريتية « صاحب العلم » إليه تنسب مقدمة كتاب كليلة ودمنة الذي قدمة لدبشليم ملك الهند .

(٣) طبع قسم منه باعتناء هنري شولتنس في ليدن (١٧٨٦) .

— Pars Versionis Arabica libri Calaila Wa Dimna edita a b H. A. S chultens:

(٤) انظر كتاب مفتاح السعادة لطاش كبرزاده ١ / ٢٣٧ = في شأن كتاب كليلة ودمنة ،

(٥) انظر معجم المطبوعات العربية ـ سركيس ـ (٢٧١) ابن الهبارية كتاب نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة طبع مع شرح الألفاظ الغريبة على الهامش .

موطنه :

ولد بقرية من قرى فارس اسمها (جور) [1] وموضعها فيروزآباد الحالية ، والعجم تسميها كور وكان عضد الدولة سماها فيروزآباذ ومعناه أتم دولته ، وجور مدينة نزهة جداً بينها وبين شيراز عشرون فرسخاً ، وإليها ينسب الورد الجوري ، وهو أجود أصناف الورد وهو الأحمر الصافي ، قال السري الرفاء يهجو الخالدي ويدّعي عليه أنه سرق شعره :

قد أنست العالم غاراته　　في الشعر غارات المغاوير
أثكلني غيد قوافٍ غدت　　أبهى من الغيد المعاطير
أطيب ريحاً من نسيم الصَّبا　　جاءت بَرِّياً الورد من جور

وقيل إن جور غزيت عدة سنين فلم يقدر على فتحها أحد حتى فتحها عبد الله بن عامر . وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام ليلة يصلّي وإلى جانبه جراب فيه خبز ولحم ، فجاء كلب وجرّه وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفّي فألظّ المسلمون بذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة .

وينسب إليها جماعة منهم : أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عمران بن موسى الجوري الأديب، كان من الأدباء المتّقين علاّمة في معرفة الأنساب وعلوم القرآن مات (٣٥٩) وأحمد بن الفرح

---

(١) في الفهرست لابن النديم : خوزا مدينة من كور فارس والأصح أنها جور مدينة فيروز آباد ، كما ذكرها صاحب القاموس المحيط .

الجُشَمي الجوري المقري ، ومحَمد بن الخطّاب الجوري ، ومحمد بن الحسن بن أحمد الجوري سمع فهد بن عبد الله التستري قراءةً ، روى عنه طاهر بن عبد الله الهمذاني[١] .

وفاته وآثاره :

كان عبد الله بن علي عم المنصور والياً على الشام فخرج على ابن أخيه سنة ١٣٧ هـ وطلب الخلافة لنفسه ، فأرسل إليه المنصور جيشاً مقدّمه أبو مسلم الخراساني ، فانتصر أبو مسلم ، وهرب عبد الله إلى البصرة ونزل على أخيه سليمان واستتر عنده ، ثم أن المنصور عزل سليمان عن البصرة سنة ١٣٩ هـ وولى مكانه سفيان بن معاوية من آل المهلب ، ولبث عبد الله مستخفياً عند أخويه سليمان وعيسى فطلبه منهما فأبيا تسليمه إلا بأمان يمليان شروطه ، فرضي المنصور بذلك ، فتقدما إلى كاتبهما ابن المقفّع بأن يكتب الأمان ويبالغ فيه كي لا يغدر المنصور بعمه . فكتب ابن المقفّع وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله : « وحتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق ، ودوابّه حُبس[٢] وعبيده أحرار ، والمسلمون في حل من بيعته »[٣] .

---

(١) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي ٢ / ١٨١ دار صادر بيروت د . ت .

(٢) حبس : موقوفة في سبيل الله لا يحق له استعمالها لمنفعته .

(٣) لم يحل الأمان دون غدر المنصور بعمه ، فقد قتله شر قتلة ، قيل جعله في بيت أساسه ملح وأجرى عليه الماء فسقط عليه ومات .

فعظم ذلك على المنصور ولا سيما أمر البيعة ، وغضب على ابن المقفّع فأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية والي البصرة ، وكان الأخير شديد الحنق على ابن المقفّع لأنه اغتاظ من توليه البصرة مكان سليمان بن علي ، فراح يستخف به ويتنادر عليه وينال من أمّه ، فقد سمعه مرة يقول : « ما ندمت على سكوتي قط » . فقال له : « الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه ! » . وكان أنف سفيان كبيراً فكان ابن المقفّع إذا دخل عليه قال : « السلام عليكما يعني سفيان وأنفه» .

فلمّا جاءه كتاب المنصور يأمر بقتله تربص به حتى دخل عليه يوماً فأمسكه وأمر به فقتل . واختلف في طريقة قتله فقيل : إنه ألقي في بئر وردم عليه وقيل : ادخل حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق ، وقيل : بل قطعت أطرافه عضواً عضواً ثم ألقي في تنور وأطبق عليه ، ومجمل القول أنه دخل ابن المقفّع على دار سفيان ولم يخرج منها أبداً .

وذكروا أن من أسباب قتله أيضاً اتهامه بالزندقة ، ومعارضة القرآن وترجمة كتب الزنادقة ، ومات وله من العمر ست وثلاثون سنة ، وخلّف ولداً اسمه محمد ، ولم يطالب أحد بدمه بسبب ما قيل عن زندقته وتعصبه لقومه[1] .

---

(١) يقول محمد كرد علي على سبب قتل ابن المقفّع : « يجوز المنصور قتل بريء كتب ما كتب حرصاً على مصلحة من يكتب والله يقول في محكم كتابه : « لا يضار كاتب ولا شهيد » وما عدم الساسة حجة يتوكأون عليها أو تأويلاً يأتيهم به المنافقون=

لقد ترك عبد الله بن المقفَّع في خزانة الأدب الكثير من المؤلفات منها : رسالة الصحابة كليلة ودمنة ، مزدك ، التاج في سيرة أنو شروان ، الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، التيمية في الرسائل ، ومن الكتب التي نسبت إلى ابن المقفَّع هي : قال المسعودي عند ذكره لفراسياب وكيفية قتله وحروبه وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل (سياوخس) (ورستم بن دستان) : فهذا كله موجود ومشروح بكتابٍ « السكيسران » ترجمه ابن المقفَّع من الفارسية الأولى إلى العربية »[1] .

لقتل من استهدفوا لغضبهم والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء عجز عن إقناع أهله بأن يكتبوا إلا ما أرادوا في أمان أحدهم فانتقم من رجل لا قوة له غير قلمه ومن رجل شريف ما تجوَّز في خيانة من يتولى الكتابة عنه ، وأبت ذمته أن يكتب لهم عهد الأمان ضعيف القيود يدخل المنصور متى أراد من أحد شقوقه فينقضه ويهلك من يحاول إهلاكه » . امراء البيان ١ / ١٢٨ وما بعدها .

(١) مروج الذهب للمسعودي (١١٨) .

الفصل الثالث

مثل القبَّرة[1] والفيل

كليلة ودمنة

حُكِيَ أَنَّ قُبَّرةً اتَّخَذَتْ أُدْحِيَةً[2] وبَاضَت فيها على طَريق الفِيلْ . وَكَـان لِلفيلِ مَشْـرَبٌ يَتَرَدَّدُ إليـه . فمرَ ذاتَ يـومٍ على عَادتِـه ليـرِدَ مورِده ، فوطِىءَ عُشَّ القُبَّرةِ ، وهَشَّمَ بَيضَها ، وقَتَلَ فِراخَها .

فلَما نَظَرتْ ما سَاءَها ، عَلِمت أَنَّ الَذي نَالَها ، مِن الفِيل لا مِن غَيرِهِ، فَطَارَتْ فَوقَعَتْ علىٍ رَأْسِهِ بَاكِيةً ، ثُمَّ قَالَتْ : « أيُّها المَلِكَ ! لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وقَتَلْتَ فِـراخِي ، وأنا في جِـوَارِك ؟ . أفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَاراً لأَمرِي ، واحْتِقاراً لِشأْني ؟ » قَـال : « هُوَ الَّـذي حَمَلَني على ذَلِكَ » .

فَترَكَتْه وانْصرَفَت إلى جَماعـةِ الطَيـرِ ، فَشَكتْ إليْهنّ مَا نـالَها مِن

---

(١) هي عصفـورة من فصيلة القبّريـات دائمة التغـريد تفتش عن غـذائها في الحقـول وعلى الطرق جمع قبّر وقبر وقنابر .

(٢) مكان في الأرض تضع فيه القبرة والنعامة بيضها بيض النعام في الرمل .

(*) هذه الحكاية لا توجد في أبواب نسخ كليلة ودمنة المختلفـة التي بين أيـدينا ولكنهـا وردت في مقدمة « بهنـوذ بن سحوان » التي أضيفت إلى كتـاب كليلة ودمنة بعـد ابن المقفّع بقرون متأخرة.

الفِيل ، فَقُلْنَ لها : « ومـا عَسى أنْ نَبْلغَ مِنْه ونَحْنُ طُيُـور ! » فَقالَت العَقَـائِق[1] والغِـربَـان : « أُحِبُّ مِنْكُنَّ أنْ تَصِـرْنَ مَعِي إليْـه فَتَفْقَـأْنَ عَيْنَيْه ، فَإني أحْتَالُ لهُ بَعدَ ذَلِك بِحيلةٍ أُخْـرى » . فأَجَبْنَهـا إلى ذٰلك وذَهَبْنَ إلى الفِيلِ ، فَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقِرْنَ عَيْنَيه حَتّى ذَهَبْنَ بِهمَـا ، وبَقِي لا يَهْتَدِي إلى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إلاَّ مَا يُقُمُّه[2] مِن مَوْضِعِهِ .

فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إلى غَدِيرٍ فِيـه ضَفَادِع كثِيـرَة فَشَكَتْ إلَيْهِنَّ مَا نَالَهـا مِن الفِيلِ . قَـالتَ الضَفَادِع : « مَـا حِيلَتُنَا نَحْنُ في عِـظَمِ الفيل ، وأيْنَ نَبْلُغ مِنْـه ؟ قَالَت : أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِـرْنَ إلى وهْدَةٍ[3] قَرِيبَةٍ مِنْه فَتَنَقَّقن فِيهَا وتَضْجِجْنَ ، فإنَّـه إذا سَمِعَ أصْـواتَكنَّ لَمْ يَشُكَّ في الماءِ فَيَهْـوِي فيها » . فـأَجَبْنَها إلى ذَلِـك واجْتَمَعْنَ فِي الهاوِيَة ، فَسَمِـع الفِيلُ نَقِيقَ الضَفَـادِع وقَدْ أجْهَـدَه العَطَشُ ، فَـأَقبل حَتَّى وقَعَ فِي الوَهْدَةِ ، فاعْتَطم[4] فِيها .

وجاءَت القُبَّرةُ تُرَفْرِفُ علَى رأْسِه وقَالتَ : « أيُّهـا الطَّاغِي المُغْتَر بِقُوَّتِه ، المُحْتقِرَ لِأمْرِي ! كَيْفَ رأَيْتَ عِـظَمَ حِيلَتي مَعَ صِغَـرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِك[5] .

---

(١) العقائق : جمع عقعق . وهو طائر أشبه بالغراب .

(٢) يقُمه : أي يلتقمه عن وجه الأرض .

(٣) الوهدة الهوة في الأرض .

(٤) اعتطم : سقط فيها وأشرف على الهلاك .

(٥) والجدير بالذكر أن هذه القصة قد وردت في الفصل الأول من النص الجديد =

هذا النص مأخوذ من كتاب كليلة ودمنة(*) ، وهو كتاب حكايات قصيرة جرى على ألسنة الحيوان ، ذات مغزى وهو ارشاد الإنسان إلى الحِكَم والأمثال، نقله ابن المقفَّع عن الفارسية وكان قد نقل إليها عن الهندية ، ولكنه لم يعرِّبه على النحو الذي نفهمه اليوم ، وإنما كان مقتبساً له ومتصرفاً فيه وزائداً عليه أبواباً ، ومحوِّراً إيَّاه ، إلى ما يجعله مقبولاً لدى المسلمين وملائماً مناخهم العقلي .

والدليل على هذا التصرف والتحوير أن ما عثر عليه الباحثون في اللغة الهندية القديمة من أصول لبعض أبوابه ـ لم يكن مطابقاً تمام المطابقة ـ لما في نسخ كليلة ودمنة التي بين أيدينا ؛ وأن المسائل الإسلامية تطغى على كثير من مظاهره ، من مثل ذكر البعث

= لكتاب « بنجا تنترا » بينها يخلو منها النص القديم للكتاب انظر « بنجا تنترا » صفحة ٢٠١ وما بعدها ترجمة الدكتور ايندو شيكهر إلى الفارسية طبعة جامعة طهران .

ولا توجد هذه القصة كذلك في كليلة ودمنة بهرامشاهي الفارسية إذ إنها تخلو من مقدمة بهنوذ بن سحوان ويشير الاستاذ عبد العظيم قريب في مقدمة كتابه منتخب كليلة ودمنة بهرامشاهي إلى ترجمة فارسية لهذه المقدمة دون أن يصرح باسم المترجم وتاريخ ترجمتها . انظر مقدمة منتخب كليلة ودمنة بهرامشاهي لعبد العظيم قريب حرف (و) طبعة وزارة التربية والتعليم الإيرانية .

(*) سنعرض فصلاً خاصاً عن هذا الكتاب في آخر هذا الفصل مع جدول للغات التي ترجم لها وتحديد السنة .

والقيامة ، والثواب والعقاب ، ووحدانية الله الفرد الصمد ، وضرورة شاهدين لإصدار الحكم[1] .

لقد قسم الأديب ابن المقفّع كتاب كليلة ودمنة إلى خمسة عشر باباً أساسية أشهرها باب الأسد والثور[2] باب الحمامة المطوقة[3] باب البوم والغربان[4] باب الناسك وابن عرس[5] ، باب السائح والصائغ وهو مثل من يضع المعروف في غير موضعه ، باب الناسك والضيف وهو مثل من يترك ما في يده ليطلب غيره فيضيع الاثنين ، باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وهو مثل من ينفع غيره بآرائه ثم هو لا يعمل بها . علماً بأن الأصول لم يعثر عليها

---

(١) راجع آثار ابن المقفّع : « كليلة ودمنة الأدب الكبير والأدب الصغير ، الدرة التيمية ، رسالة الصحابة ، وآثار أخرى » طبعة دار الكتب العلمية .

(*) كليلة ودمنة : اسمان علمان ، وهما من أبطال القصة في الباب الأول من الكتاب إذ تدور الأحداث حولها كما أنهما يلعبان دوراً رئيسياً على مسرح القصة ـ الأسد والثور ـ .

ويقول ابن المقفّع : « وكان فيمن معه ـ الأسد ـ في السباع ابنا آوى يقال لأحدهما « كليلة » والآخر دمنة ، وكانا ذوي دهاء « والعلم والأدب » .

كليلة ودمنة ص ٩٩ تحقيق نائل المرصفي .

(٢) وهو يدور على المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال ومغزاه الاحتراس من الوشاة وعدم التسرع في التصديق والحكم .

(٣) يدور على الأخوان المتعاونين في االضيق ومغزاه أن في الإتحاد قوة .

(٤) يدور على العدو المتظاهر باللين ، ومعناه أن على الإنسان أن لا يغتر بعدوه .

(٥) ومغزاه أن على الإنسان أن يتريث ويحكِّم عقله لأن في العجلة الندامة .

مجموعة في كتاب واحد من قبل ، ولا عُرف لها مؤلف واحد بالذات ، وإنما كانت عبارة عن قصص متفرقة نسبها الناس قديماً إلى رجل حكيم اسمه بيدبا ، وجعلوا الحوار فيها بينه وبين ملك لم يقفوا على ذكر له في التاريخ يدعى دبشليم . وهذا الأمر دعا أكثر من باحث(١) إلى القول بأن الكتاب من وضع ابن المقفّع ، وأنه استعان فيه ببعض القصص الهندية ، كما استعان بعناصر أخرى ، وإنما نسبه إلى الهند طمعاً في انتشاره ورواجه ، وحذراً من أن يتخذ خصومه ذريعة للتنكيل به لاشتماله على كثير من انتقاد الحكومة على سياستها(٢)

والواقع أن كتاب كليلة ودمنة عجيب في بابه وقد ذكر الكاتب في التوطئة السبب الذي من أجله وضعه ، ومؤدّى ذلك أن ملكاً يدعى دبشليم تربّع على عرش الهند بعد أن انحسرت عنها موجة فتوح الإسكندر . وأطاح الشعب بالوالي الذي نصبه الفاتح المقدوني الكبير ، إلا أن هذا الملك بدلاً من أن يسير سيرة عدل في أحكامه

---

(١) راجع كتاب كليلة ودمنة تعليق الشيخ إلياس خليل زكريا .

(٢) يشير الدينوري إلى أن الفرس كانوا يعرفون كتاباً باسم كليلة ودمنة : فيقول إن بهرام جوبين كان إذا نزل المنزل دعا بكتاب كليلة ودمنة فلا يزال منكباً عليه طول نهاره فقال كسرى لخاليه «بندويه» و«بسطام» ما خفت بهرام قط كخوفي منه الساعة حين أخبرت ادمانه النظر في كليلة ودمنة لأن الكتاب يفتح للمرء رأياً أفضل من رأيه وحزماً أكثر من حزمه انظر الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري صفحة (٨٩) طبعة ليدن (١٨٨٨) .

وقـد استوثق لـه الأمر : « . . . طغى وبغى وتكبَّـر وتجبَّر ، وعبث بالناس واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم » .

وكان في زمانه رجل فيلسوف اسمه بيدبا ، فلما رأى ما هـو عليه من ظلم الـرعيـة ، فكـرً في صـرفـه عن ذلـك فجمـع تـلامـذتـه وشاورهم : « وأجال الفكرة وأطال العبرة في أمر دبشليم » فـرأى أن الواجب عليه أن لا يقف منه موقف الغـافل المهمـل . وأن لا يدفـع عنه سوءه بالهرب منه ، وإنما بمواجهته ومجاهدته ولو باللسان وذكـر لهم أنـه جمعهم لهذا : « . . . لأنكم أسـرتي وموضـع سـرِّي وبكم اعتضد. وعليكم أعتمد ، فإن الوحيد في نفسه والمفـرد برأيـه حيثما كـان ، هو ضـائع ولا نـاصر لـه ، على أن الفاعـل قد يبلغ بتـدبيره وتعاونه مع غيره ما لا يبلغه بالخيل والجنـود ». واستشهد على ذلـك بمثل القُبَّرة والفيل »[1] .

وفي نظرة موجزة على النص مثل القبرة والفيل نجد أن قبَّرة داس الفيـل بيتها ، فهشم بيضهـا وقتل فـراخها ، فسـألتـه إن كـان ذلـك استصغـاراً لها ولبني جنسهـا فقال هـو كذلـك ، ففكرت كيف تنتقم منـه وهي عاجـزة وضعيفة ، فـذهبت إلى جماعـة الـطيـر ، وشكت إليهن مـا فعل الفيـل بها وأفـراخها ، واتفق الجميع على أن تذهب العقاعق والغربان ، وتصير إليه وتفقأ عينيه حتى يصبح وهو لا يهتدي إلى مـطعمه ومشـربه ، ثم تـذهب بعدهـا إلى الضفـادع فتنقن في حفـرة وتوهمنـه بأن فيهـا الماء ، فـلا يلبث أن يأتي إليهـا فيـوقعنـه

(١) انظر كتاب الأدب القصصي عند العرب ، لموسى سليمان .

فيهـا . . . وهكذا يقضي جمـاعـة الضعفـاء البـائسين على الملوك المفترين الظالمين[1] .

وهنا يبرز لنا الكاتب أن الظلم نهايته وخيمة ، وأن الظالم مصيره حتماً إلى الزوال إذا عرف المظلومون ولو كـانوا ضعـافاً أن يتعـاونوا ويرسموا الخطط لتدبير الثأر من ظـالميهم ، ففي الإتحاد قـوة وعلى الكبير أن لا يحتقر الصغير فقد يغلبـه هذا بـالعقل والتـدبير ، ولكن الكاتب أخفى آراءه هذه كلها . ولم يصرّح بها مباشرة ، بل التمس لها هذا الأسلوب الذي يحاور ويقص قصـة الحيوان ، هـدفه تعليم الإنسـان ـ بمنطق العقـل التي تنساب كلمـاته إلى الفؤاد والـوجدان وبـذلك تكـون العبارة بليغـة في كثير من الأحيـان . ويبني الكـاتب قصتـه على مبدأ التعـاون الموفـور بين الأخوة والـود القـائم ثم هـو يستعين على التغلغل إلى قلب القارىء عبر ألسنة الحيوان .

ثم أن النص يدخل في باب الأدب القصصي لأنه يحكي حكـاية أو حـادثة معينـة ، وهي قصة خـرافية لأن حـادثته التي يـرويها غيـر ممكنـة الـوقـوع ، إذ متى كـانت القبّـرة تفكـر وتتكلم وتـذهـب إلى مشاورة غيرها من الحيوانات ؟ ومتى كانت الـطيور والضفـادع تنطق كما ينطق البشر العاقلون ؟

هنا يكمن نوع من الطرافة في قصـة القبّرة والفيـل ، وهو يهـدف

---

(١) انظر كتاب المفيد في الأدب العربي ١ / ٣٩٣ منشورات المكتبة والمطبعة الإفريقية بيروت (١٩٨٠) .

من هـذه الأقصوصـة إلى إعطاء مغـزى . بعد أن غيـر مرمـاه وقلب مبنـاه . ومجمل القـول أن نضع مكـان الفيـل والقبَّـرة شخصيـة من الناس ونضع مكان الطيور والضفادع أشخـاصاً آخـرين فهل يستقيم الأمر ؟ بل إن هذا ما قصد إليه الكاتب فعلاً ، لقد أراد تصويـر حال الناس ، ولكن بأسلوب العبـارة المرتبـة والحجة القـوية على ألسنـة الحيـوانات ومن طـريق إنطاقها بما ينـطق به النـاس عادةً ، ولجـوء الكتَّاب إلى مثل هذه الوسيلة بالتعبير يكون على الغالب إمـا لتبسيط القصة ، وتقريبها إلى إفهام الناشئة ، وإمـا لنقد الحيـاة الاجتماعيـة والسياسية بأسلوب رمزي مبطن لا يثير غضب الحكام المستبدين .

وهنا يقول ابن المقفَّع : «الملوك أحوج إلى الكتَّـاب من الكتَّاب إلى الملوك »[١] . وهذا الأديب بحكم أدبه وعبقـريته كثيـر الخصوم والحسـاد الذين يقـومون بـالسعايـة بينه وبين عليـة القـوم ممن لهم اتصـال به ولـذلك نجـد أن أغلب ما كتبـه في هذا الفن كـان دفعـاً لسعاية أو دحضاً لوشاية أو إبعاداً لفريـة أو تكذيبـاً لوقيعـة ، وهو في هذه الحالة الرمزية يعمد إلى النكتة والطرافة ، وتنـطوي على مغزى حكيم ومتى كـانت القصة كـذلك فـإنها تـدعى القصة المثـل أو مـا يعرف باللغة الأجنبية بلفظة«Fable» أو «Apologue» عـلى الأصـح وقد اشتهر بها لافونتين[٢] في القرن السابع عشر.

---

(١) راجع صبح الأعشى للقلقشندي ١ / ٧٣ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ .

(٢) هو لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) شاعر فرنسي صاحب كتاب الأمثال الشهير الذي تأثر فيه بايزوب وفيدر وكليلة ودمنة ، يمتاز أسلوبه بعذوبته وحيويته .

إن الذي أراده ابن المقفَّع من وراء قصصه ، لا يمكن فهمه إلا بالنظر إليه على ضوء الظروف التي رافقت حياة هذا الكاتب ، فابن المقفَّع شبَّ في العصر العبّاسي وهو العهد الذي انتقل فيه الحكم من الأمويين إلى العبّاسيين وشهد ما رافق هذا الانقلاب من فظائع حاقت بالرعية ، نتيجة لفداحة القتل واختلال الأمن وآلمه ما رأى من بطش الخليفة وشدة جوره ، وميله إلى الانتقام واحتكامه إلى السيف في شأن كثير من الناس ، متذرعاً حجج واهية، وهنا نلاحظ أن أديبنا يغضب للجرائم التي ترتكب بصورة بشعة فيصورها في قالب هذه القصة ، وكأنه أراد أن يكون المنصور كما كان بيدبا من دبشليم ، ويلح الكاتب في طلب القصاص من الفيل الذي هشم بيض القبّرة وقتل فراخها ، باتحادها مع إخوانها الضعاف[1] .

ومن صميم تدخل كاتبنا في شؤون الدولة تقديمه النصح للملك وقد رمز إليه بالفيل ، ويدعوه أن لا يسلك طريق الظلم أو يستهتر بحق الرعية ، حتى لا يؤلب الرأي العام عليه ، بمعنى إرشاد الرعية ، وتوجيهها نحو الطريق التي تسلكها لتدبير الثأر من ظالميها وتهددهم بقدرة الرعية على الانتقام رغم ضعفها . وذلك بفضل

(١) وفي كتاب بنجا تنترا يروي المؤلف هذه القصة على لسان أنثى طائر المطر وهي تبدي قلقها لزوجها من خطر مد مياه البحر بينما ينصحها زوجها بالبقاء وينتهي الحوار بأن تضرب له الزوجة مثل الفيل والعصفور فمدخل هذه القصة وردت في كتاب كليلة ودمنة العربي ضمن نص السلحفاة والبطتين . كليلة ودمنة صفحة ٢٠٢ تحقيق خليل اليازجي .

التعاون المخلص بين جميع أفراد الشعب . من هنا ندرك أن مغزى ابن المقفَّع من حكـايتـه هـو مغـزى سيـاسي معين يتمثـل في نقـد الحكم العبّاسي وبطشه وتصوير واقع حاله ، وإظهـار فائـدة التعاون والمشاورة ورسم الخطط من قبل الشعب للوقوف بوجه هـذا البطش وردّه .

وعلى مبدأ الظن ربما كان هـذا الكتاب من الأسبـاب التي قتلت ابن المقفَّع فقد كـان من ضحايـا المنصور كثيـرون جداً قتلهم هـذا الخليفـة بالـظنّة وفي تهمـة الزنـدقة ، ويقـول الأستاذ عبـد اللطيف حمزة: « . . . ومن يدري لعل ابن المقفَّع لم يجـد طريقـة يصلح بها من اعوجاج الخليفة ويتشفى لنفسه بها ، إلا أن ينقل إلى الناس كتاب كليلة ودمنة وهو يرجو أن يقرأه الخليفة فيعدل عن غيـه ويقرأه غيره فيتسلى بلهوه ، وأكبر الظن أن هذا هو الغرض الرابع الذي لم يصرح به في مقدمة كتابه »[1] .

وابن المقفَّع نفسه أكـد على ما قـاله الأستـاذ عبد اللطيف حمـزة حين قال عن هذا الكتـاب « . . جمع لهـواً وحكمة . . . يجتبيـه الحكماء لحكمته والسخفاء للهوه » ، وقد طلب من القارىء الجدي أن لا يظن « أن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبـع لثـور . . . لأن لهـذا الكتـاب غـرضـاً أقصى مخصـوصـاً بالفيلسوف خاصة . . » .

---

(١) انظر كتاب ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة صفحة ٨١ طبعة دار النشر الحديث د . ت .

لقد حرص ابن المقفّع على المغزى الاصلاحي في كتاب كليلة ودمنة ولكن لم يشغله عن الفن الذي أرسى قواعده في حكايته ووفر سائر مزايا الفن القصصي من حيث تراكيبها المتلاحقة الأجزاء وترابط حلقاتها . وكأنها مشهد مسرحي له بدايته ونهايته . هذا ما كان من عصر ابن المقفّع في أكثره نقل علوم الأعاجم والاستفادة منها[1] .

ولقد تميز أسلوب ابن المقفّع بأنه أسلوب المفكر الحكيم الذي لا يرضى بالأحكام يطلقها سريعة غير معللة بل يدعمها بالمثل يسرده مبتعداً به عن الموعظة المباشرة إلى أسلوب القصة والحوار . « . . إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وأبين للمعنى ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث » .

إن من أوائل الكتاب في العربية منذ عهدها بدأت بعبد الحميد ، وابن المقفّع فهما أستاذا المدرسة الكتابية الأولى » ومن خصائص هذه المدرسة ميلهم إلى القول الموجز فعباراتهم كانت مساوية لمعانيهم ولقد استخدما الأسلوب المنطقي ، فالموضوع ينقسم إلى فقرات وفقرات تنقسم إلى جمل ، ومن

---

(١) إن قصة الفيل والقبرة من القصص الهندية التي دخلت في اللغة العربية ثم الفارسية الدريَّة ولكن لا نعلم متى انتقلت هذه القصة من الهندية إلى العربية فهل كان بهنوذ بن سحوان هو من نقلها لأول مرة من الهندية إلى العربية مباشرة ؟ انظر كتاب عبد الله بن المقفع لمحمد غفراني الخراساني صفحة (٢٣٠) طبعة دار القومية د . ت .

خصائصه أيضاً أنه في تركيب هذه الألفاظ يذهب مذهب السهولة فلا يسجّع ، ولا يصنع وإنما يرسل الكلام إرسالاً يسمعه الجاهل فيظن أنه يحسن مثله ولكنه يمتنع عليه ، ومن هنا سميت طريقة ابن المقفّع في الكتابة بطريقة السهل الممتنع .

وفي الواقع لقد اختلف المؤرخون في أصل كتاب كليلة ودمنة فذهب بعضهم إلى أن ابن المقفّع وضعه ثم ادعى ترجمته ليبعد عنه تبعة ما فيه من تعاليم للملوك وذوي الأمر ، واستندوا في رأيهم إلى أقوال بعض القدماء كابن خلكان الذي قال : « يقال إن ابن المقفّع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة وقيل إنه لم يضعه وإنما كان بالفارسية فنقله إلى العربية وإن كان الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه[1] .

وهنا نورد ما قاله العلامة المحقق أبو الريحان البيروني في كتابه « تاريخ الهند » ما نصه : « ولهم (أي الهند) فنون من العلم أُخر كثيرة وكتب لا تكاد تحصى ولكني لم أحط بها علماً ، وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة كتاب « پنج تنترا »[2] وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة ، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييره إياه ، كعبد الله بن المقفّع في زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين

---

(١) راجع كتاب وفيات الأعيان وفيه تفصيل وافي عن هذا الموضوع .

(٢) پنج أي خمس مقالات وتنترا معناها صندوق المعاني الطيبة » .

وكسرهم للدعوة إلى مـذهب المنانيـة ، وإذا كان متهمـاً فيما زاد لم يخل عن مثله في ما نقل » .

ومن جهة التفكير فقد اشتمل هذا الكتاب على معاناة لمشكلات مجتمعـه وتفاعله مـع ظروف الـواقع الـذي عـاش فيـه ، ولقـد فهم الأدب على أنه رسالة يتمثل فيها صدق التجربة وصفـاء العقل ، ثم قـوة الصلة بين مضمـون النص وصـوره التعبيـريـة وبين الحـركـة الإنسانية والاجتماعية المتفـاعلة مع وجـدان الكاتب وتفكيـره ، وقد بـرز هذا التفـاعل بمـا تضمنه النص من أفكـار ثوريـة هزّت قصـور الخلفـاء بحيث أنها حـرّضت عليهم الجماهيـر ، وفتحت لهم عيون الرعية ، بـمـا قـدمـت إليها من دروس مـلأتها بـالحكمة وشحنتهـا بالموعظة والعبرة .

أمـا من حيث التعبير فقـد امتاز أسلوبـه بخاصتـه الريـاضية التي اختصت بها فلسفة اليـونان ، ولا سيمـا الفلسفة الفيثـاغوريـة[١] وما فيها من عدد وتقسيم ، حتى ظن بعض المستشرقين أن لكليلة ودمنة أصلاً يونانياً « ولقد سعى ابن المقفّع لتوسيع الجملة العربية وتليينها ودرج الكـلام في سلسلة كالـرياضيين وقسم الأشيـاء كالمنـطقيين ، ولم يقف عند هذا الحد بل أحدث شكلاً فنيـاً استغنى به عن إلقـاء العظة بالأسلوب المباشر ليعبّـر عنها بـأسلوب القصة والمثـل وتنظيم الحوار . ولعل كتاب كليلة ودمنة هو أقوى ما كتبه ابن المقفّع لأنه :

---

(١) الفيثاغورية : نسبة إلى فيثاغورس فيلسوف يوناني ٥٦٩ ـ ٤٧٠ ق . م .

ـ وضعه بلغة سهلة ، واعتمد فيه على تصوير النفس الإنسانية بمختلف حالاتها .

ـ صبه بقالب قصصي ، وجعله بالأسلوب المنطقي إنشاءاً وبهذا أزال عنه الجفاف والتعقيد اللذين يعمان كتب المنطق والفلسفة .

ـ ودس فيه قضايا مثل تحرير السلطان والرعية من عيوبهم ، والثورة على الظلم ، والتعاون الحكيم لبلوغ الأهداف . ونشر فيه قيم خيرة وروح الفضيلة ، وهو كتاب عرفته اللغة العربية منذ نيف وألف من السنين والأيدي تتناوله والمدارس حافلة به .

الأدب الصغير:

ترجم هذا الكتاب أيضاً فلم يكن ابن المقفّع في الأدب الصغير مولداً وإنما هو ناقل متصرف في النقل تماماً كما فعل في كليلة ودمنة ، وقد قال ابن المقفّع في مقدمة هذا الكتاب « . . . قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْن على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » .

وتأثير هذا الأدب في إنماء العقول فهو يقول : « . . . فكما أن الحبة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يبسها، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها ، إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها ، فيذهب عنها أذى اليبس والموت ، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها

من القلب ، لا قوة لها ، ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو نماؤها وحياتها ولقاحها » .

ثم قال « إن الناس لا يبتدعون هذا الأدب لأنهم يروونه ويحكونه فإن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً » .

والأدب الصغير عبارة عن دروس خلقية واجتماعية وتهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة ومعرفة الخالق ، وتحث على طلب العلم وتشترط على العالم التواضع وعدم الاعتداد بالنفس ، وتدعو المرء إلى تأديب نفسه ومحاسبتها وتحسّن له الزهد والتصوف ، وهي مع ذلك تعظم شأن المال ، ولا تنهي عن جمعه ، « ومن لا مال له فلا شيء له والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس » .

على أن الكاتب ينهاك عن الاغترار بالمال الكثير ويدعوك إلى القناعة بالقليل منه ، لأنه يريده مانعاً للفقر ليس غير ، وهو على نصائحه الاجتماعية والأدبية لا يغفل عن المواعظ الدينية فيأمر بالتقوى والتعبد لله ، ومعرفة نِعَمِهِ التي لا تحصى ، والشكر له لتزداد هذه النعم .

وجملة القول إن الأدب الصغير رسالة نفيسة في سياسة الاجتماع وتهذيب النفس ورياضتها على الأعمال الصالحة ، ومعرفة الخالق .

ومجمل القول على موضوع الكتاب ، فهو هذا الكلام الذي قاله ابن المقفع من أنه محفوظ واعتذر لك في مقدمته عن ذلك بقوله ، « . . ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه ، فلا يرين عليه ذلك ضؤولة ، فإنه من أعين على حفظ قول المصيبين وهدي للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء فلا عليه إلا أن لا يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه في رأيه . . . » .

وهذا يدل على أن الكاتب يعتقد أن الذين تقدموه من الحكماء بلغوا الغاية ، فلم يتركوا زيادة لمستزيد ، ويوضح ذلك في قوله : « . . . وجُل الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ، ليس حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مرويٌّ متعلَّم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب ، وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها ، إلا من قبل العليم الحكيم . . . » .

وهنا يقر ابن المقفَّع بأنه أخذ كتابه هذا عن غيره أما انشاؤه فيختلف عن انشاء كليلة ودمنة لأن ابن المقفَّع اتخذ فيه الأسلوب المنطقي فظهر عليه بعض الجفاف وتخللته جمل اعتراضية فلم يخل من التعقيد ، وازدحمت فيه المعاني الفلسفية الدقيقة فصعب التماسها ، لأنها أفرغت بقالب انشائي بحت ، كله تحذير وتحضيض وأقيسة وأعداد وتقاسيم ، فلم يتم لها الوضوح الذي تم لها في حكايات كليلة ودمنة ، وقد أورد فيه جمل وأقوال واردة في كليلة ودمنة بحروفها ولكنها مندمجة هناك في القالب القصصي

السهل ، ولا يخلو الأدب الصغير من ضرب المثل ولكن أمثاله قصيرة لا تشبه أمثال كليلة ودمنة التي ساقها مساق النوادر والأقاصيص .

الأدب الكبير[1] :

يتناول ابن المقفع موضوع كتابه هذا بعد أن يذكر الأسلاف ويعظم ما تركوا للخلف من علوم ، ويريد بهؤلاء الأسلاف الأمم الأعجمية وإليهم يشير بقوله : « . . . إن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم ، والكلمة من الصواب وهو بالبلد غير المأهول ، فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل وكراهية لأن يسقط ذلك من بعده » . ثم يعترف أنه أخذ لكتابه هذا من أقوال المتقدمين ، وقسم الكتاب إلى قسمين : قسم يتكلم به على علاقة الراعي بالرعية أي على السلطان والمتصلين به ، وقسم يتكلم به على الرعية بعضها ببعض وتكلم به على الصديق ، ويستهل القسم الأول

---

(١) وهو ما سماه ابن النديم في فهرسه باسم « ماقر حسيس » وذهب الأستاذان هوفمان وجوستي إلى أن اسمه محرف عن « مه فراجو شناس » ويقول الأستاذ عبد اللطيف حمزة في ابن المقفع صفحة (٢٤٠) م على المعنى بأنه توصل إلى أن الكلمات ينبغي أن تكون مؤلفة من « مه » بمعنى عظيم أو كبير « وفراج » بمعنى سمو أو علو . « شناس » بمعنى الشرح أو الفهم ، فيكون المعنى الإجمالي لهذه الكلمات شيئاً قريباً من قولنا : « الكتاب الكبير في المعارف العالية » .
ولقد ضبطه ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار ١ / ٧٦ باسم الآداب الكبيرة لابن المقفع ـ طبعة دار الكتب العلمية بيروت د . ت .

بقوله : « وإنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة » . . . ثم يأخذ في نصح السلطان مطالباً إياه احتذاء المثال الأعلى فيوصيه وصايا حسنة تتناول سياسته للعمال والرعية ، وما ينبغي له أن يتحلى به ، من الخصال الحميدة ، فمن جملة نصائحه له أن لا يزيد من ساعات شهوته ودعته ، وينقص من ساعات عمله وتعبه ، وأن لا يعرف بحب المدح ، وأن يتحلى بثلاث خصال : رضى به ، ورضى سلطانه أن كان فوقه سلطان ، ورضى صالح من يلي عمله ، وأن يتخذ بطانته من أهل الدين والمروءة . وأن لا يأنف من المشورة لأنه يطلب الرأي للانتفاع به لا للافتخار به .

فيقول: «وأعدل السير أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى لك».

ويوصيه أن لا يعاجل بالثواب ولا بالعقاب وأن يصبر على أهل العقل والسن والمروءة دون غيرهم ، ويوصيه بتفقد فاقة الأحرار ليسدها ، وطغيان السفلة ليقمعه ، ويريد بذلك أن يكون مالك الأمر يقظاً متنبهاً لجميع أحوال رعيته ، ثم ينتقل بالكلام على المتصلين بالسلطان فيعطيهم نصائح تتعلق بسياستهم معه ، وفيها أشياء كثيرة اعتمد عليها بعده الفارابي وابن سينا في كلامهما على سياسة المرؤوس لرؤسائه . فمنها هرب المرؤوس من صحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته لئلا يهلك في دينه إذا صحبه ، وفي دنياه إذا صحب الرعية وأغضبه .

ومنها مداراة الوالي والنظر إلى ما يحب وما يكره ومنها تزيين

رأي الولاة وقلة استقباح ما يصنعون ، وغير ذلك من النصائح التي تختص بمصاحبة الملوك ولقد أراد ابن المقفع بهذه النصائح إظهار استبداد أولي الأمر ، والتغير من مصاحبتهم ، ويعتقد بطرس البستاني : إن أبا جعفر المنصور لم يكن راضياً عما فيه من ذم السلطان[1] .

ويقول عبد اللطيف حمزة : « يمكن أن يكون للأدبين الصغير والكبير أثر للثقافة اليونانية إلى جانب الثقافة الفارسية الغالبة عليهما ». ويدلك على النزعة اليونانية قوله : « ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم ما لا تعلم ». فهو يذكر القارىء بمذهب « سقراط »[2] وطريقته في تعليم الناس وقوله : « إن العاقل ينظر فيما يؤذيه ، وفيما يسره فيعلم أن أحق ذلك بالطلب ـ أن كان مما يحب ، وأحقه بالإتقاء ـ إن كان مما يكره أطوله وأدومه وأبقاه ، فإذا قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى ، وفضل الرأي الجامع العام ـ الذي تصلح به الأنفس والأعقاب ـ على

---

(١) انظر كتاب أدباء العرب في الأعصر العبّاسية لبطرس البستاني (١٥٥) طبعة دار الثقافة بيروت (١٩٦٨) .

(٢) فيلسوف يوناني نحو (٤٧٠ ـ ٣٩٩) ق . م ولد في أثينا وعلم فيها ، أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره ، وجعل محور الفلسفة معرفة الإنسان نفسه ، ودرس تصرفاته والنواميس التي تدفع إليها وبهذا أسس علم الأخلاق . كان تعليمه على طريقة السؤال والجواب ، شرب السم فمات في سجنه ، وصلت إلينا تعاليمه في كتب تلاميذه منهم أفلاطون .

حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل ، وفضل الأكلات على الأكلة ، والساعات على الساعة ، »[1].

وكذلك « فإنك تلمح في ثنايا هذا رأي « أبيقور »[2] وهو أنه يجب أن يراعي في تفضيل لذة على لذة ـ الشدة والمدة وتفضيل اللذائذ العقلية والروحية على اللذائذ البدنية وهكذا »[3] .

وأما القسم الثاني فقد خصه بالصديق وحسن العلاقة بين الناس والتأدب في معاملة الأصدقاء وحفظ المودة والوفاء لهم ، ويستهله بقوله : « ابذل لصديقك دمك ومالك »[4] . ومن وصاياه أن لا ينتحل الإنسان رأي صديقه لئلا يثير سخطه عليه ، وأن لا يشارك محدّثاً في حديث يعرفه فإن ذلك خفة وسوء أدب وسخفاً ، وأن يحسن الاستماع ويخفض الصوت عند الكلام ، ولا يسفّه أقوال

---

(١) انظر كتاب ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة صفحة ٢٤١ وما بعدها طبعة دار النشر الحديث د . ت .

(٢) فيلسوف يوناني فلسفته عملية نحو (٣٤١ ـ ٢٧٠) ق . م يقول فيها أن في اللذة سعادة الإنسان وقبل كل شيء اللذة العقلية والروحية كالصداقة والفضيلة .

(٣) انظر كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢ / ٢٠٣ طبعة القاهرة (١٩٣٦) وما قبلها .

(٤) وابن المقفع عظيم المودة والوفاء والدليل قصته مع عبد الحميد وفيها «أنه لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استخفى عبد الحميد فعثر عليه في الجزيرة عند ابن المقفع وفاجأهما الطلب وهما في بيته ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد وسلمه السفاح إلى عبد الجبّار فقتله ونجا ابن المقفّع على كره منه . شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ١٤٩ طبعة القاهرة .

جلسائه ، وابن المقفّع في أثناء كلامه على الصديق ينهاك عن أشياء لا يصح التخلق بها ، ويوصيك أن تحترز من سكر السلطة ، وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب ، ويختم كتابه بذكر الصفات الحسنة التي ينبغي للمرء أن يتحلى بها في حياته ، وهي خلاصة ما كتبه في الأدب الكبير .

والأمر الذي يلاحظ في الكتاب اعتماد الكاتب على العقل في كل شيء لذلك ترى إنشاء الكتاب خطابي محض ، كله أمر ونهي ، وقد خلا من الأمثال ولم يغلب عليه سوى الأسلوب المنطقي ، فقلّت قياساته فجاءت عبارته أسهل من الأدب الصغير وأوضح .

ويقول ابن المقفّع نفسه « . . . البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » . والجاهل لا يتفهم الكلام إلا إذا كان سهلاً واضحاً فإن فهمه طمعت نفسه في احتذائه ، غير عالم أن البليغ السهل صعب الرياضة بعيد المنال . لأنه ينبغي له أن يأتي بالكلمة المأنوسة والابتعاد عن الكلمات الغريبة الوحشية لذلك ينبغي عليه معرفة الكثير من المترادفات حتى يدخل إلى البلاغة ، ولطالما أوصى الكاتب بترسم خطاه فقال : « إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر » .

وهو كغيره من المتقدمين لا يحفل بتسجيع الألفاظ وتزويقها ولا يقصد إليه البتة إلا ما جاء عفواً ، وقضت به الفصاحة في أثناء الكلام . وهذا لا يعني أنه لم يكن يتخير ألفاظه وينتقيها وقال

الراغب الأصبهاني[1]: كان ابن المقفّع كثيراً ما يقف إذا كتب. فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره...».

وامتاز في حلاوة ألفاظه وتقسيمه جمله متسلسلاً في ترتيب وتناسق وجمله عادية لا تعقيد فيها ولا طباق ولا جناس ولا سجع، وهذه البساطة هي الصفة المميزة لأسلوب ابن المقفّع، وقال أبو العيناء: «كلامه صريح ولسانه فصيح وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور، وروض ممطور»[2].

والأقوال فيه كثيرة وكلها تدل على منزلته الرفيعة في دولة النثر، والواقع أن ابن المقفّع كان يدرك البلاغة إدراكاً دقيقاً بهذا المعنى، وأنه وصف أسلوبه هو بهذا الوصف ـ إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره ـ وأكبر الظن أن أسلوبه محبباً لدى الناس مع أنه عجمي التفكير في جميع مؤلفاته وهو أول مفكر تناول الموضوعات العقلية بإنشاء رفع به لغة الأدباء، وخلص من تمويه الحضارة الجديدة وتزويقها، فجاء متنوع العبارة يجري مع الطبع.

---

(١) انظر كتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني صفحة ٨٤ طبعة القاهرة د. ت.

(٢) هو القاسم الهاشمي أبو العيناء، نحو (٨٠٧ ـ ٨٩٦) ولد ونشأ في الأهواز وتوفي في البصرة أديب وشاعر له أخبار ونوادر في قصر الخليفة ومجالس الأمراء حفلت بها كتب الأدب.

رسـالـة الصحـابـة:

وهي من أشهـر رسـائله التي كتبهـا لأبي جعفـر المنصـور[1] والأغلب أنهـا من وضعـه وصنـاعتـه ولكنـه استعـار ببعض الكتب الفـارسية وقـد سميت رسالـة الصحابـة لتضمنها كـلاماً على بـطانـة الخلفاء والولاة وأصحابهم الذين يقربونهم ويجعلونهم مـوضع السـر منهم وسميت أيضـاً « الهاشميـة » نسبة لبني هـاشم وهم أجداد بني العبّاس ، وهذه الـرسالـة التي كتبها ابن المقفّـع ـ توشـك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلى المنصور ويقول الأستاذ طه حسين : « إنهـا وحـدها السبب في قتـل ابن المقفّع » . وفي هـذه الـرسـالـة تجـد تشريعاً جديداً من عمل الكاتب يقترحه على الخليفـة ليعمل بـه في أمور شتى كان أهمها أمر القضاء الذي كثرت فيه الأقـوال وأصبحت بسببه الدماء مباحة وكان من حقها أن تحقن ، ودماء مباحة أصبحت محرمة وقد كان من حقها أن تهدر ـ وليس هينـاً على أحد أن يجـابه كل هذا الخطر أو أن يصمد لمثل هذا البطش ! ولكن لا أقل من أن يعمل الكاتب الأديب حيلته وذكاءه إن أراد إصلاحاً من هذه النـاحيـة وتلمس أنـه يعمد في بعض الأحيـان إلى الإشارة بعبـارات صريحـة كما فعل في هـذا الكتاب فيقـول بعد أن دعـا الخليفة إلى العـطف على أهل الشام حتى يكسبهم إلى جانبه بـدلاً من أن يظلوا معـادين

---

(١) لم يصرح ابن المقفع باسم أمـير المؤمنين لـذلك اختلف البـاحثون في أمـره هل هـو السفـاح أو المنصور ؟ ويـرى الأستاذ أحمـد أمين أن الكـلام موجـه إلى أبي جعفر المنصور وهذا ما نثبته .

للدولة يتربصون بها ـ : « . . . وقد علمنا التاريخ أن الملك إذا خرج من قوم بقيت فيهم بقية يحنون إلى مجدهم القديم ، فيثورون وتكون ثورتهم سبب استئصالهم وتدويخهم » . وقال أيضاً : « . . . ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبني أميّة وبني علي وبني العبّاس ، فإن فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى »[1] .

ـ وأما رجال البلاط فقد ندد بهم ابن المقفّع في هذه الرسالة التي سماها باسمهم وهي « رسالة الصحابة » ويعني بالصحابة هنا بطانة الخليفة ، وكان هذا المعنى معروفاً في تلك الحقبة ، وفي الرسالة تقرير في نقد نظام الحكم ووجوه إصلاحه وعلى زعم الكاتب في رسالته هذه ـ أنه في سخطه على البطانة إنما يعبّر عن آراء الناس فيهم . وأن الناس يرون في أمر هذه البطانة عجباً وفي اختيار الخليفة لهم ظلماً : أما العجب فلأنهم لا يمتازون بأدب ولا حسب ، مسخوطون في آرائهم مشهورون بفجورهم ليس لهم في الدولة كبير بلاء ولا عظيم غناء ، وأما الظلم فلأنه يؤذن لهم مع هذا على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، ويجري عليهم الرزق أضعاف ما يجري على كثيرين من بني هاشم ، فدخلت المحنة بذلك على الأحساب والمروءة والنجدة والشرف وابتعد الفضلاء عن الخليفة حتى أن قوماً من فضلاء البصرة ـ وفيهم

(١) انظر كتاب ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة ١٥٣ وما بعدها دار النشر الحديث د . ت .

ابن المقفّع أتوا دار الخلافة في أيام السفاح ـ فأبوا أن يزوروه لما يعلمون من بطانته ومن سيرتهم السيئة ! »[1] .

والرأي عند ابن المقفّع أن يحسن الخلفاء اختيار بطانتهم ، لأن بطانة الخليفة كما يقول : « بهاؤه وزينته ، وخاصته من عامته ، وألسنة لرعيته . لا تصلح الرعية إلا بهم ، ولا تستقيم الأمور إلا على أيديهم » . لقد جعل ابن المقفّع القسم الكبير من رسالته يدور حول الجند متناولاً شؤونهم المادية والأدبية ـ وعاب عليهم أمور كثيرة منها : الجهل وسوء الخلق وشدة الغيرة من بعضهم بعضاً . والميل إلى الترف بسبب كثرة المال ، وكثرة الزهو الذي يخشى على الدولة نفسها منه ـ . فلقد أشار ابن المقفّع إلى وضع قانون يبين للخليفة ولهم ما يفعلونه وما يتجنبونه ، واقترح الكاتب على أمير المؤمنين أن يبذل جهده في إصلاح الجند باتباع أمور أولها : الا يُولي أحداً منهم شيئاً من الخراج « لأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » وداعية لهم إلى البطر أحياناً وظلم الناس أحياناً ، والخروج على الدولة إن دعا الأمر .

والثاني : أن ينظر الخليفة في أمر الجند فمن كان غير كفء للمركز الذي يشغله عزله ـ أي مراعاة الكفايات في القيادة فيولّي خيار الجند ـ ومن كان منهم أفضل من بعض رؤسائه فليلتمس له مكاناً يليق به ، ففي ذلك قتل للغيرة من نفوس المغمورين ،

---

(١) انظر كتاب عبد الله بن المقفّع سليم الجندي ، وابن المقفّع خليل مردم سعد طبعة دمشق عام ١٩٣٠ وابن المقفّع لعبد اللطيف حمزة صفحة ١٥٩ وما بعدها .

وحسم للزهو من نفوس الذين واتاهم الحظ وليسوا أكفاء لما واتاهم به .

والثالث : أن يتعهد الخليفة بتثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية بالتعليم والتهذيب وأن يأخذهم بالقصد والتواضع ، وأن يعودهم العفة والأمانة وأن يجنّبهم الترف ولين العيش ، وأن يعين وقت محدد للجند يقبضون فيه رواتبهم ، وأن يتقصى أحوالهم وأخبارهم وحالاتهم ، ويستعين على ذلك بالتقاة من أصحابه والمخلصين من رجاله . ففي ذلك حزم واستئصال للشر قبل استفحاله وبذلك تنقطع شكيتهم ، وتستفيد الدولة من قوتهم ـ وهي دولة ناشئة كثيرة الآمال واسعة الأطراف كثيرة الأعداء .

ثم انتقل الكاتب إلى موضوع الجباة وعمال الخراج « أي المال المقروض على الأراضي» فشكا الفوضى في هذا الموضوع وانتقد سلوكهم بشدة وصور للخليفة ظلمهم وسوء سيرتهم ومحاولة رجاله إخفاء الأمر عنه . وكان جديراً بالدولة أن تراقبهم وتضرب على أيديهم وتريح الناس منهم فقد ضاق الناس بهم ذرعاً ، وقاسوا منهم كل بلاء[1] .

عرض الكاتب على الخليفة الإصلاح بأن يتخير الخليفة من يتولّون هذا العمل وشدة الرقابة عليهم وتغييرهم عند ظهور الخيانة منهم ، وقد أشار برأي علم أن تنفيذه عسير ، وأدرك أنه لا يتيسر

---

(١) ابن المقفّع لعبد اللطيف حمزة ـ ١٦٢ وما بعدها .

للدولة إلا بعد أن يستقر لها الأمر ويتقادم بها العهد . ويفرغ رجالها للإصلاح الداخلي الذي يعود على الشعب والحكومة معاً بالخير والرخاء .

نصح ابن المقفّع بأن تمسح الأرض ـ وتكتب أسماء الملاك في « سجلات » ويكتب أمام كل مالك وظيفته ـ أي المبلغ الذي يؤديه للدولة على الجزء الذي يملكه ، قال : « فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول ، حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها ، لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرضين وحسم لأبواب الخيانة وغش العمال ، وهذا أمر مؤونته شديدة ، ورجاله قليل ونفعه متأخر ! . . .

وأما القضاة فكان حسابهم عند الكاتب عسيراً وكان أمرهم في نظره عجيباً ، فلقد عجب في رسالته تلك من فوضى الأحكام وتناقض الآراء ، وذلك حتى في القضية الواحدة والبلدة الواحدة ، يُحكم فيها بقضاءين متناقضين وكيف أن الفقهاء يحتجّون لهذه الآراء المختلفة وأن القضاة فريقين : فريق يحكم بالسنة والقياس ، وفريق يعمل بالرأي أو العقل فوضع علاجاً لهذه المعضلة بأن يوضع قانون رسمي تجري عليه المملكة الإسلامية في جميع أنحائها ويرجع في هذا القانون إلى ما يرشد إليه العقل والشرع في معنى العدالة ـ وأن يجعل الخليفة من نفسه مرجعاً أعلى في هذه المسائل

التي تمس القضاء ـ فإذا اختلف القضاة في شيء ردوه إلى الخليفة فنظر فيه الخيفة واستعان في ذلك بالفقهاء، فإذا وصل بعد هذا كله إلى حكم استطاع أن ينسخ به كتباً يحفظ بعضها عنده، ويذيع بعضها الآخر على القضاة في الأمصار.

فإذا اجتمعت له طائفة كبيرة من هذه القضايا والأحكام ، وإذا فعل كل خليفة من بعده مثل ذلك ـ تألف للحكومة في نهاية الأمر قانون كبير لا يضل قاض باتباعه ولا يختلط على الناس أمرهم إذا اهتدوا به .

ويقول الدكتور طه حسين : «وهذه الفكرة التي يُعنى الناس بها الآن لم يبتدعها ابن المقفّع ، بل هي أثر من آثار الثقافة اليونانية ، فقبل ابن المقفّع بقرنين نشر جوستنيان[1] قانونه وهو مجموعة القوانين الرومانية » ومن عادات الرومان أنه إذا انتخب الـ PRETORESS ـ القضاة ـ يصدر كل واحداً منشوراً بالقواعد التي ينبغي أن يكون عليها حكم القضاة في أثناء ولايته»[2].

---

(١) عنى جوستنيان بالقضاء وعمل على توحيده فجمع لذلك عشرة نفر منهم ثمانية من كبار الدولة واثنان من نوابغ المحامين وعهد إليهم بالرجوع إلى قانون سلا(Salla) وقانون اركيديوس وقانون تيودسيانوس. كما عهد إليهم النظر في الكتب القديمة والتفكير أيضاً في المسائل الواقعة . فبدأوا العمل عام ٥٢٩ واستمروا فيه ثلاث سنين حتى أتموه ـ راجع مختصر من كتاب the cana bidge— . medieaval History V.II P.103

(٢) انظر كتاب من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٧٢ .

ويقول عبد اللطيف حمزة « والذي أميل إليه أن هـذه الفكرة ـ إن لم تكن من وضع ابن المقفَّع ـ فهي أثر من آثار ثقافته الفارسية قبـل كل شيء ، ثم لا يمنع ذلك من أن يكون الفرس أنفسهم قد عـرفوا هذه الفكرة عينهـا قبل ذلـك عن الرومـان في أثناء الصـلات الكبيرة والحروب العديدة التي وقعت بين الدولتين وكانت منها الحرب التي شنها عاهل الفرس وهـو الملك « قباذ »[1] على قيصـر الروم ـ وهـو هنا الأمبراطور « جستينان »[2] .

وسـواء أكانت الفكـرة يونـانية أم فـارسيـة فـإن ابن المقفَّـع بعـد عرضها أحدثت ثورة عند الفقهاء وأهل الحديث كان لها الأثـر البيِّن فيمن اشتغلوا بعد ذلك بالفقه وعلم الكلام من رجال القضاء .

وأما الشعب ـ عند ابن المقفَّع ـ فليس أقل حـاجة إلى الإصـلاح من الجبـاة والجنـد والقضـاة وكيف تصلح أمـور الشعب إذا لم تقم على إصلاحها الحكومة ؟ وهل تصلح الرعيـة إلا بصلاح الـراعي ؟ إن حاجة النـاس إلى تقويم آدابهم وعـاداتهم أشد من حـاجتهم إلى طعامهم وشرابهم . وإنهم لا يصلحـون بأنفسهم حتى يكـون عليهم من الخاصة رقباء ومؤدبون . « وخطر هذا جسيم في أمرين أحدهمـا برجوع أهل الفساد إلى الإصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفـة ، والأمر

(١) اسم حمله اثنان من ملوك الفرس الساسانيين (٤٨٨ ـ ٥٣١) حاول الاستيلاء على سورية وبلاد الروم تغلّب سنة وفاته على القائد البيزنطي بليذير .

(٢) انظر كتاب ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة صفحة ١٥٧ وما بعدها .

الآخر ألا يتحرك متحرك في أمر من الأمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ولا يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيخ نحوه ».

وربما كانت هذه الفكرة تدل على اتصال ابن المقفع بثقافة اليونان : « إذ كان ذلك العمل معروفاً شائعاً عند اليونان ـ وهو المحتسب ـ وهو من تعهد إليه الدولة مراقبة العامة في أنديتهم ومجالسهم وأسواقهم »(*) .

ـ كان ابن المقفع يريد أن يأخذ الشعب بهذا الضرب من التأديب والتهذيب فكان يوجه دعوته إلى الحكومة حتى تقوم من ناحيتها بهذا، وكان فوق ذلك كله يوجه الخطاب للشعب نفسه داعياً أفراده إلى توثيق عرى العلاقة بين بعضهم البعض ، وإليك قوله في كتابه ـ الأدب الكبير ـ : « احفظ قول الحكيم الذي قال : لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل ، وفيما بينك وبين صديقك الرضا ، فإن العدو خصم تقرعه بالحجة وتغلبه بالحكام . والصديق ليس بينك وبينه قاض ، فإنما حكمه رضاه» .

ـ وبعد هذا كله فما أثر هذه الدعوة الحارة إلى الإصلاح الاجتماعي الذي ينشده ابن المقفع ؟ وما نصيب كل جانب فيها من النجاح أو الفشل ؟ ذلك ما نستطيع أن نتحسس الإجابة عنه في سيرة هؤلاء جميعاً بعد وفاة الرجل وقبل وفاته ، وفي تطور الحركات الفكرية والاجتماعية منذ عهد الدولة بهذه الرسالة القيمة ـ :

(*) انظر في كتاب من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٧٣ .

فالخليفة المنصور يظهر أنه لم ترق في عينه هذه الدعوة الجريئة إلى الإصلاح ، فلم يرحب بها بل يظهر أنه غضب من أجلها ، أو يظهر أنه اعتبرها برنامج ثورة على الحكومة ربما استفحل خطرها بعد ، ولعل هذه الدعوة التي بلغت هذا الحد من العنف والصراحة كانت من الأسباب التي قتلت الرجل ومن يدري ـ ماذا كان يصيب الدولة من البلاء ـ إذا كان المنصور قد تهاون في أمر هذه الثورة التي قام بها الكاتب الداهية ! وهل فعل « روسو »[1] و« فولتير »[2] « وديدرو »[3] في فرنسا أكثر من أنهم وضعوا أيديهم على مواطن الداء وبالغوا للفرنسيين في تصوير البلاء ، حتى أحس الناس يومئذٍ أنهم مظلومون ؟ ثم كان إحساسهم بالظلم هو وحده السبب الحقيقي في قيام الثورة الفرنسية ! الواقع أن المنصور كان محقاً في خوفه من ابن المقفَّع . ولو لم يكن المنصور رجلاً عظيم الدهاء بعيد الرأي قوي الشكيمة ، لكان لهذه الدعوة شأن غير هذا

---

(١) هو جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كاتب فرنسي ولد في جنيف له تآليف اجتماعية وفلسفية من العقد الاجتماعي « أميل » « واعترفات » .

(٢) هو فرانسوا ماري ارواي فولتير(١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ولد في باريس مؤلف فرنسي أقام في سويسرا تزعم حركة الفلسفة المادية ، ونقد السلطة وكتب في الشعر والتاريخ والمسرح والفلسفة « مؤلفاته المحاولات الفلسفية » « كنديد » « زئير » « محمد » « شارل الثاني عشر » .

(٣) ديدرو فيلسوف فرنسي (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) نشر مبادىء الإلحاد والفلسفة العقلانية أسس الانسيكلوبيديا وأشرف على إصدارها .

الشأن . ألا ترى أنه من حسن حظ روسو وڤولتير وكتّاب الثورة الفرنسية أن ظهرت كتاباتهم في عهد ملك قليل الشر مؤثر للدعة والهدوء ، وهو الملك لويس السادس عشر(١) ويقول المؤرخون إن عصر هذا الملك كان عصر رخاء على الفلاح وأن الظلم لم يبلغ عهده شيئاً بالقياس إلى ما بلغه في عهد سلفه من ملوك فرنسا !(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن غرض ابن المقفَّع من تأليف هذه الرسالة إنما كان يريد دعوة الحكام والولاة إلى إصلاح أنفسهم وبسط العدل على مساحة ممالكهم . ولكن هذه الدعوة باءت بالفشل وخاصة من جانب الولاة والخلفاء ، وهل يتوقع أن يتّبع المنصور نصيحة مولى كان متهماً بالأمس في دينه ، وهل يتوقع من المنصور بأن يأخذ مشورة هذا المولى الزنديق ، ويترك العمل بمشورة الفقهاء وأهل الحديث . وإذا كان الفشل نصيب ناحية من نواحي الإصلاح الذي كان ينشده ابن المقفَّع لعداوة المنصور الشخصية له التي حالت دون إظهار دعوته الجريئة إلى الإصلاح ، إلا أن تقادم العهد والزمن وتعاقب الخلفاء ، قد بدأ هؤلاء يتدبرون أقواله ويتحمسون لآرائه .

وهنا يشير إلى ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين : « ولسنا نجزم

---

(١) ولد في فرساي (١٧٥٤) تزوج ماري انطوانيت النمساوية ، اتهم بعد محاولة هربه ٢٠ حزيران (١٧٩١) بالتعامل مع الأجنبي وبالخيانة . قتل ٢١ كانون الثاني (١٧٩٣) .

(٢) انظر كتاب ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة صفحة (١٦٥) وما قبلها .

أن هذه المحاولات نشأت عن تقرير ابن المقفع ، فقد تكون تبلوراً لفكرة عمر بن عبد العزيز(١) في جمع الحديث . فقد كان يرى هذا الرأي ، فبتقدم الزمان رؤي جمع الحديث وجعله قانوناً ، وقد يكون فكرة المنصور(٢) والرشيد نتيجة العاملين معاً . فكرة جمع الحديث التي ارتآها عمر بن عبد العزيز وفكرة تقنين القوانين التي ارتآها ابن المقفع وهو الذي نميل إليه »(٣) .

وهكذا كانت الثورة وبيان أوجه النقص في النظم القائمة التي أطلقها ابن المقفع جعلت الكثير من الخلفاء والولاة يعيدون النظر في هذه النظم ، ثم يكون بناء حقيقي للقوانين أخذ الخلفاء رويداً رويداً يصلحون من شؤون الولاة والقضاة والجند وعمال الخراج . وقاموا على تأديب الشعب نفسه حتى أصبحت وظيفة « المحتسب » من الوظائف الضرورية في الدولة ، وأصبحت لا تقل في شأنها عن « وظيفة الوزير » أو « صاحب المظالم » أو « صاحب البريد » أو غيرها من الوظائف(٤) .

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ هـ - ١٠١ هـ) اشتهر بتقواه وتمسكه بالسنة انصرف إلى الإصلاح الداخلي والمالي .

(٢) أراد المنصور أن يوفق بين رأي الفقهاء ، وأهل الحديث ويجعلها قانون .
وذلك بكتب مالك بن أنس فرفض الأخير ذلك . وكذلك أراد الرشيد أن يفعل « بالموطأ » فيعلقه في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ورفض أيضاً مالك فكرة الرشيد .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١ / ٢١٠ وما بعدها صلة القاهرة .

(٤) انظر ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة (١٦٩) .

وهكـذا فإن النجاح البطيء كـان نصيب النـواحي الأخـرى من نـواحي الإصـلاح الـذي أراده ابن المقفـع ، فكـان الخلفـاء يـرون أنفسهـم مضطرين إلى العمل بأقوالـه وإن لم يصرحـوا - أو يشعروا - بأنهم يصدرون في أعمالهم عن رأيه ومشورته ؟.

الخداينامه :

لم يكتف ابن المقفع بنقل تلك السابقة جميعها حتى نقل كتاباً آخر في تاريخ الفرس وربما كان من أعـظم الكتب التي فخروا بها قديماً - وكلمة «خداينامه» كانت في الأصل البهلوي «خوتاينامك» فانقلبت الكاف هاء في الفارسية الدرية(١) وعندما نقل الكتاب إلى اللغة العربية سمّي «سير الملوك» أو «سير ملوك الفرس».

ويبدو أن لفظ «خداينامه» كان في الأصل «نامه خداوندان» أي رسالة الملوك إذ يحتوي الكتاب على أحوال وسير ملوك الفرس. والظاهر أنها مجموعة كبيرة من الأساطير وقد امتزج في هذه الأساطير التـاريخان الخرافي والحقيقي واشتد هذا المزج حتى كان من العرب والفرس الذين اطلعوا على هذا الكتاب من ظنوا أن «لـرستم» وغيره من الأشخـاص الخرافيين وجـوداً حقيقياً كوجود «سابور» وغيره من الأشخاص الحقيقيين»(٢).

(١) كما هو الحال في كل اسم مختوم بالهاء مثل «تشنه» أي عطشان وكذا «كرسنه» أي جائع .

(٢) انظر مقدمة الأستاذ نولدكه لتاريخ الطبري

Noldeké's Introduction to tabary as translated by Nariman Bombay 1918

يبدأ الكتاب بذكر أحوال وسيرة الملك : «كيومرث مؤسس الأسرة البشدادية حتى عهد الملك خسرو برويز الساساني »[١] ولكن متى كتب هذا التاريخ ؟ ومن هو الذي أتمه بعد ذلك ـ يقول الأستاذ نولدكه « إن الخداينامه إنما كتبت في عهد كسرى الأول وهو كسرى أنو شروان ، ولكنها لم تتم إلا في عهد يزدجرد الثالث ، وإن الذي أتمها هو دهقان من دهاقين الفرس يعرف باسم « دانشوار »Danishwar - - - . ولست واثقاً كل الثقة من هذا الاسم. فربما كان نعتاً معناه عالم أو رجل ذو معرفة . ومن اليسير على من يقرؤون«الشهنامة » أن يأخذوا من كلامهم الفردوسي في بعضها أنه إنما كان يسمى بهذا الاسم كل دهقان من دهاقين الفرس يكون من عمله جمع القصص التي تنسب إلى ملوكهم »[٢] .

ويؤخذ من عبارات الأستاذ نولدكه أن الخداينامه نفسها كانت من المصادر التي اعتمدت عليها قصة الفرس وهي الشاهنامه للفردوسي وإن كان جميع الباحثين يوشكون أن يجمعوا على أن الترجمة العربية لابن المقفّع لم تكن أحد المصادر التي اعتمد عليها الشاعر الفارسي »[٣] .

---

(١) انظر كتاب عبد الله بن المقفّع لمحمد غفراني الخراساني (١٧٤) دار القومية للطباعة للنشر د . ت .

(٢) انظر مقدمة الأستاذ نولدكه لتاريخ الطبري .

. Noldeké's Introduction to tabary as translated by Nariman Bombay 1918

(٣) انظر كتاب عبد الله ابن المقفّع لعبد اللطيف حمزة (٢٥٦) .

وفي تاريخ تأليف الكتاب وقع بين سنوات (١١ / ١٥ هـ) ويؤيد ذلك ما جاء في مقدمة الشاهنامه الفارسية المعروفة بمقدمة السلطان حسين بايسنقر[١] « بأن الملك السّاساني يزدجرد الثالث (١٠ / ٣١ هـ) أمر أحد الدهاقين النجباء « ويدعى دانشوار » بتدوين تاريخ كامل لملوك الفرس فقام بتأليفه معتمداً في ذلك على النسخ القديمة التي كانت مودعة في خزائن الملك كسرى أنو شروان وكان هذا الكتاب مصدراً أساسياً لجميع سير الملوك التي ألفت باللغة العربية في العصر الإسلامي[٢] .

ـ وأول من قام بترجمة هذا الكتاب هو عبد الله بن المقفّع ، ولكنه ذهب مع الأسف أدراج الرياح وباد مع ما باد من الآثار الفارسية القديمة .

ويقول المستشرق الألماني نولدكه : « إن ابن المقفّع لم ينحرف عن أصل الكتاب ولم يحوره ، وإنما لا يستبعد أن يكون الكاتب قد حوَّر بعض المضامين التي لم تكن تلائم البيئة الإسلامية ، فكان يحذف حيناً ويزيد حيناً آخر ولكن دون أن ينحرف عن الموضوع » . وتؤيد ذلك مقارنة بعض نصوص كتاب ابن المقفّع

---

(١) وهو من أحفاد تيمورلنك «الأعرج» المعروف بـ « كَورگان » (م / ٨٣٨) : وله مقدمة على ديوان شاهنامه للفردوسي ، واشتهرت هذه المقدمة التي كتبت بأمره بمقدمة بايسنقر .

(٢) نقلاً عن مجلة كاوة الفارسية « السنة الخامسة العدد (١١) ربيع الأول عام (١٣٣٩) هـ طبعة برلين » .

بغيرها من المصادر التي ترجمها الآخرون عن أحوال وسير الملوك الفرس مباشرة مثل خداينامه الذي كان مصدراً للشاهنامة الفارسية [1].

« كما يؤخذ من عبارات الأستاذ قولدكه أن ابن المقفّع كان عالماً بتاريخ الفرس مشتغلاً بجمع تراثهم، شديد المحافظة على هذا التراث مع إدراك ما تحتاجه البيئة الإسلامية. وقد عثر الباحثون على فصول وقطع من كتاب سير الملوك لابن المقفّع مبعثرة في كتب المؤرخين القدامى منها:

. «عيون الأخبار» لابن قتيبة فيقول: وقرأت في كتاب سير العجم أن فيروز بن يزدجرد بن بهرام لما ملك سار بجنوده نحو خراسان لغزو « خشنوار » ملك الهياطلة ببلخ فلما انتهى إلى بلاده اشتد رعب اخشنوار منه وحذره له»[2].

. وأيضاً كتاب سعيد بن البطريق خليفة النصارى في الإسكندرية المعروف بـ «أوتيكيوس» فقد جاءت في هذا الكتاب قصة « فيروز بن يزدجرد بن بهرام » التي ذكرها ابن قتيبة أيضاً ولكن مع شيء من التلخيص »[3].

---

(1) انظر كتاب عبد الله بن المقفع لمحمد غفراني الخراساني صفحة (١٧٥) الدار القومية د. ت.

(2) انظر كتاب عيون الأخبار ابن قتيبة ١/ ١٩٧ طبعة دار الكتب العلمية د. ت.

(3) انظر كتاب ابن المقفع لعبّاس إقبال صفحة ٣٥ طبعة برلين « بالفارسية ».

وقد أدخل ابن المقفّع بترجمة هذا الكتاب مظهراً جديداً من مظاهر الحياة الفارسية في المجتمع العربي وخاصة ما يختص بآداب الملوك والأشراف مما أدى إلى تطوير النظام الاجتماعي في العصر العبّاسي وقد اصطبغ بلاط الخلفاء العباسيين بطابع النظام الفارسي حيث أخذوا يقلدون الملوك الإيرانيين في آدابهم وعاداتهم كما كان لهذا الكتاب أثر عميق في الأدب العربي إذ أخذ الشعراء يذكرون القصص والأساطير الفارسية في أشعارهم فنرى أبا النوّاس مثلاً يتحدث في قصيدته المشهورة التي هجا بها قبيلة «نزار» عن قصة ضحاك وفريدون وأولها

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها[1]

ويقول المسعودي: وقد أطال الرشيد حبسه بسبب هذه القصيدة[2]، وقد أشار أبو تمام أيضاً إلى هذه القصيدة في مدح الأفشين أولها:

بذا لجلاد البذ فهو دفين ما إن به إلا الوحوش قطين[3]

ولم تمض مدة طويلة على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية

(١) انظر ديوان أبي نواس صفحة (١٥٥) تحقيق محمود واصف طبعة القاهرة (١٨٩٨).

(٢) انظر كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي صفحة ٧٦ طبعة القاهرة (١٩٣٨).

(٣) انظر ديوان أبي تمام صفحة ٢٤٩ بتحقيق عبد الحميد يونس طبعة القاهرة (١٩٤٢).

حتى انتشر في جميع الأقطار الإسلامية إلى أقصى بلاد المغرب ومصر والحجاز ، .وأخذ العرب يتناقلون قصص الفرس القدماء ، ولولا ترجمة ابن المقفّع لهذا الكتاب لما علمنا كثيراً عن حياة الفرس القدامى وسير ملوكهم ، ومن ثم يتبين لنا مدى أهمية هذه الترجمة كمصدر تاريخي ، وقد حقق المستشرق الألماني « نولدكه » مسائل كثيرة من كتاب « خداينامه » عندما قام بترجمة فصل تاريخ الساسانيين من كتاب تاريخ الطبري ، وسماه كتاب « تاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانين » وكتب له مقدمة علمية يتحدث فيها عن كتاب «خداينامه » بالتفصيل »(١) .

كما قام الروسي «بارون روزن » بتحقيقات علمية حول كتاب « خداينامه » وقد أكمل المستشرق « زوتنبرج » تحقيقات هذين المستشرقين ، وكتب مقدمة جامعة لترجمة فرنسية لكتاب « غرر أخبار ملوك الفرس » وتحدّث فيها عن كتاب « خداينامه » وشرح موضوعات كثيرة منه » .

« وقد ضاعت ترجمة ابن المقفّع لكتاب خداينامه كما لم يبق أثر من أصل الكتاب الفهلوي نفسه ، إلا مقتطفات وردت في كتب المتأخرين وخاصة كتاب « حمزة الأصفهاني » ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٣٥٠ هـ »(٢) .

---

(١) انظر مقال للأستاذ تقي زاده في مجلة كاوه الفارسية عدد ١١ العام الخامس .

. Noldeké's Introduction to tabary as translatel by Nariman Bombay 1918

(٢) انظر مقدمة تاريخ الطبري للأستاذ نولدكه الطبقة الأوروبية .

ويرى نولدكه أن كتاب «سير الملوك» لابن المقفَّع هو ترجمة الأصل وأنه يعتبر الأساس لجميع كتب سير الملوك الفرس التي تعرَّض لها « حمزة الأصفهاني » في كتابه « تاريخ سنى ملوك الأرض » ويعقب كرستن مسن على رأي نولدكه بقوله : « إن نظرية نولدكه هذه قد عُدلت بعد أن درس العالم الروسي « بارون روزن » هذا الموضوع من جديد ، وكتب بحثاً بالروسية عن التراجم العربية لكتاب خداينامه عام (١٨٩٥) »[١] .

وكان لكتاب خداينامه ـ سير ملوك الفرس ـ أثر كبير في البيئة العربية إذ قام كثير من الأدباء والمترجمين بتهذيب ونقل هذا الكتاب إلى العربية مرة أخرى بعد ابن المقفَّع ، ويقول ذلك أبو عبد الله حمزة الأصفهاني : « وملوك الفرس على تطاول أيام ملكهم مع اجتماع كلمتهم كان يلزم طبقاتهم الأربع أربعة أسماء : الفيشدادية[٢] والكيانية والإشغانية[٣] والساسانية ، وتواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة ، لأنها نقلت بعد مائة وخمسين سنة من لسان إلى لسان ، ومن خط متشابه رقوم الأعداد، إلى خط متشابه رقوم

(١) راجع كتاب « إيران في عهد الساسانيين » لكريستين مسن صفحة (٤٧) ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .

(٢) الفيشدادية : معرب البيشيدادية وهي مركبة من كلمة « پيش » بمعنى الامام والسابقة ، ومن كلمة (داد) بمعنى العدل .

(٣) الإشغانية معرب الأشكانية .

العقود فلم يكن لي في حكاية ما يقتضي هذا الباب ملجأ إلا إلى جمع النسخ المختلفة النقل ، فاتفق لي ثماني نسخ وهي

- كتاب سير الملوك الفرس من نقل ابن المقفع

- كتاب سير الملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي

- تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون .

- كتاب سير الملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهويه الأصفهاني .

- كتاب سير الملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني

- كتاب تاريخ بني ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصفهاني .

- تاريخ بني ساسان من نقل أو جمع موسى بن عيسى الكسروي .

- تاريخ ملوك بني ساسان من بهرام بن مردانشاه مو بذكورة من بلاد فارس . . .

- ثم يستطرد حمزة الأصفهاني قائلاً : فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب (١) .

---

(١) انظر تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني صفحة (٨) طبعة ليبرنك وطبعة برلين وطبعة القاهرة .

ويقول العلامة القزويني : « ومن الغريب أنه لم يرد اسم موسى بن عيسى الكسروي في كتاب « تاريخ حمزة الأصفهاني » وذلك بالرغم من أن المؤلف يصرح بنفسه أنه جمع ثماني نسخ من كتاب سير ملوك الفرس فأين إذن النسخة الثامنة ؟ . ومن هنا يغلب الظن على أن نسخة موسى بن عيسى الكسروي هي التي قد سقطت حين طبع هذا الكتاب ويؤيد ذلك أن صاحب كتاب « مجمل التواريخ والقصص » حينما يترجم في كتابه الفقرة التي نقلناها عن حمزة الأصفهاني يذكر اسم هذه النسخة من ضمن النسخ الأخرى للكتاب ناقلا عنه[1] وورد اسم كتاب آخر لسير الملوك الفرس تأليف «بهرام بن مهران الأصفهاني»[2] وقد سميت هذه التراجم كلها « سير الملوك » .

وقد قام المؤرخون المتأخرون من الفرس بتأليف كتب في سير ملوك الفرس وسموها « شاهنامه » معتمدين بذلك على كتب سير الملوك العربية ، فمنها نسخة كتاب « شاهنامه » لأبي المؤيد البلخي ، وجاء ذكره في كتاب « قابوس نامه » وكتاب مجمل التواريخ وكتاب تاريخ طبرستان ومنها كتاب شاهنامه لأبي منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسي[3] ، وقد قام بنظم الكتاب الأخير الشاعر الحماسي أبو منصور الدقيقي ، ولكن الموت أدركه ولقي

(١) انظر (بيست مقالة) ١ / ٥٧ و٦٠ طبعة طهران .
(٢) انظر الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني صفحة ١٩ طبعة القاهرة .
(٣) كان والياً على مدينة طوسى من قبل السامانيين .

مصرعه عام (٣٧٠ هـ) ولم يستطع إتمامه وجاء بعده أبو القاسم الفردوسي[١] وأكمل عمل الدقيقي ونظم الشاهنامه وهو يعتبر الآن من أمهات الكتب الفارسية التي ظلت وحيدة دون منافس فترة طويلة من الزمن[٢] .

التـاج :

أورد ابن النديم في كتابه الفهرست اسم هذا الكتاب في موضعين أحدهما ضمن قائمة الفهلوية التي ترجمها عبد الله بن المقفَّع إلى العربية بعنوان « كتاب التاج في سيرة أنو شروان »[٣] وثانيهما ضمن قائمة الكتب التي ألفها الفرس القدماء في السير والأسماء لملوكهم بعنوان « كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم »[٤] وقد أبان ابن النديم اسم مترجم الكتاب في الموضع الأول وهو ابن المقفع ولكنه لم يشر إلى مترجم الكتاب في الموضع الثاني ، وقد نسبه الأستاذ ملك الشعراء بها ـ إلى ابن المقفع أيضاً دون أن يبرر وجهة نظره بالأدلة[٥] . ولعله يرى أنهما كتاب واحد ، ولا نستطيع

---

(١) اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته والقول المشهور أنه ولد عام (٣٢٠ هـ) .

(٢) انظر كتاب عبد الله بن المقفّع لمحمد غفراني الخراساني صفحة ١٧٩ طبعة الدار القومية د . ت .

(٣) انظر الفهرست لابن النديم صفحة ١١٨ .

(٤) المصدر السابق صفحة ٣٠٥ .

(٥) انظر كتاب سبك شناسي لملك الشعراء بهار ١ / ١٥٦ .

ان ندلي برأي قاطع في هذا المجال بل نقف منه موقف الحيطة والحذر الذي تؤيده الحقائق الآتية :

١ ـ لا نعلم أن ما ذكره ابن النديم في الفهرست من الكتابين باسم « التاج » هل هما كتابان منفصلان مستقلان ، أم أنهما كتاب واحد بهذا الاسم ؟ وأما ما ذكره ابن النديم من « سيرة أنوشروان » فغير صحيح[1] .

٢ ـ لا توجد نصوص منقولة عنهما في الكتب القديمة إلا ما رواه ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار بعنوان « التاج » مما يجعلنا نشك في كتاب التاج الذي ذكره ابن قتيبة أيضاً هل هو أحد الكتابين اللذين ذكرهما ابن النديم ؟ أو هو كتاب ثالث يختلف عنهما تماماً ، ويؤيد ذلك أن كتاب « التاج » المعروف بـ «تاجنامه » في الأدب الفهلوي لم يكن اسماً خاصاً لموضوع معين ، بل هو عنوان لطائفة من الكتب المؤلفة لأغراض خاصة ، شأنها في ذلك شأن باقي الكتب الفهلوية التي تدل عناوينها على أنها ألفت في موضوعات مختلفة أمثال « آئين نامه » و« اندرزنامه » . و« پندنامه » .

٣ ـ لا يوجد في جميع الفقرات التي نقلها ابن قتيبة عن كتاب « التاج » موضع واحد ورد فيه اسم كسرى أنو شروان حتى يغلب الظن على أنها مأخوذة من كتاب التاج في سيرة أنو

---

(١) انظر كتاب إيران في عهد االساسانيين لكريستين مسن صفحة ٥٠ ترجمة الدكتور يحيى خشاب .

الشروان، كما لا يوجد فيها شيء يتعلق بالتفاؤل أو التكهن والتنبوء حتى يبرر لنا إمكان نسبتها إلى الكتاب الثاني «التاج وما تفاءلت به ملوكهم» فمن المرجح إذن أن يكون كتاب «التاج» الذي ورد اسمه في كتاب عيون الأخبار كتاباً ثالثاً من سلسلة كتب «تاجنامه» التي ألفت في الأدب الساساني (١) والتي لم تكن سابقاً في مواضيع محددة وإنما كانت تشمل كل ما يخص سير الملوك الساسانيين أو ما يمت إلى نظام الدولة وشؤونها ومراسيمها بصلة.

آئين نامه: (٢)

ومن آثار ابن المقفع كتاب «آئين نامه» وقد محى مع الأسف ولم يبق له أثر إلا بعض المقتطفات التي يوردها المؤرخون القدامى في كتبهم كابن قتيبة في عيون الأخبار(٣) والمسعودي في كتابه التنبيه والإشراف(٤) والثعالبي في كتابه غرر أخبار ملوك الفرس

(١) انظر مقالة الدكتور محمد محمدي في مجلة الدراسات الأدبية العدد الأول من العام الثالث طبعة بيروت (١٩٥٩) وعنوان البحث «كتاب التاج للجاحظ» وانظر كذلك إيران في عهد الساسانيين لكريستين سن صفحة ٥ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب.

(٢) أن لفظ آئين في الفهلوية بمعنى الرسوم والطريقة والسيرة وهو يرادف في العربية لفظ الآداب.

(٣) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ١٣٣/٢ - ١٥١ - ١٥٣ طبعة القاهرة.

(٤) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي (١٠٦) طبعة ليدن.

وسيرهم[1] كما ورد ذكر الكتاب في كتاب الفهرست لابن النديم[2] .

وكان لكلمة « آثين » عند الفرس مفهوم واسع يطلق على طائفة من الكتب تتضمن تعليم فنون الحرب والرماية والصولي وغيرها من الفنون المتداولة في ذلك العصر ، وقد كتب المستشرق الروسي « بارون روزن » في المجلة الملكية الأكاديمية علوم بطرسبرج مقالاً قيّماً بعنوان «آثين نامه »[3] وكتب عن هذا الكتاب أيضاً المستشرق الدانمركي كرستين سن في كتابه : « إيران في عهد الساسانيين »[4] وكُتب بحث آخر قيّم أيضاً حول هذا الكتاب بقلم الدكتور محمد محمدي وقد نشرّته مجلة الدراسات الأدبية بعنوان «آثين نامه والمقاطع الباقية منها في المصادر الأدبية »[5] .

ويستفاد من كلام كرستين سن أنه يرى أن « آثين نامه » الذي ترجمه ابن المقفّع هو نفس كتاب « الرسوم » الذي أورد ذكره المسعودي في كتاب « التنبيه والإشراف » ووصفه بأنه عظيم في

---

(١) انظر غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبي صفحة ١٤ طبعة باريس .

(٢) انظر الفهرست لابن النديم صفحة (١١٨) (٣٠٥) .

(٣) انظر المجلة الملكية العدد ٨ صفحة ٧٧٥ / ٧٧٧ .

(٤) انظر كتاب إيران في عهد الساسانين لكريستين مسن صفحة ٤٩ ترجمة د. يحيى الخشاب .

(٥) انظر مجلة الدراسات الأدبية العدد الثاني عام (١٩٥٩) صفحة ١٥ و٤١ بيروت .

الألـوف من الأوراق[1] . ويقـول في مـوضـع آخـر من الكتـاب « وللفـرس كتاب يقـال له : « كهنـامه ـ كَـاهنامـه »[2] وفيه مـراتب مملكـة فارس وأنهـا ستمائـة مرتبـة على حسب ترتيبهم لهـا . وهذا الكتـاب من جملة آئين نامـه وتفسير آئين نـامه كتـاب الرسـوم وهـو عظيم في الألوف من الأوراق لا يكاد يوجد كامـلاً إلا عند المؤابـذة وغيرهم من ذوي الرئاسات »[3] .

وقد استنبط الدكتور محمد محمدي من قول المسعـودي هذا أن ابن المقفع لم ينقل جميع أجزاء الكتاب كاملة فيقول : « والراجـح أن ما نقله ابن المقفَّع لم يكن شاملاً لكـل أجزاء الكتـاب بكامله ، وإن كـان أطلق عليه اسم « آئين نـامه » لأن قـول المسعـودي : إن مجموع الكتاب لا يكاد يوجد إلا عند المؤابذة » يوحي بأنه كانت لا تـزال في حوزة المؤابـذة في زمن المسعودي أقسـام من الكتـاب لم تنقـل إلى العـربيـة ، ويمكن تفسيـر ذلـك بـأن الكتـاب حيث كـان مشتملاً على أقسام غير ملائمـة للبيئة الإسـلامية أو مـطالب لم تكن موضع اهتمام المسلمين فلذلك لم يهتم الناقلون بترجمتها »[4] .

---

(١) انظر كتاب إيران في عهد الساسانين لكريستين مسن صفحة ٩ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .

(٢) كلمة إيرانية لها معان متعددة منها : المحل ، والمرتبة ، وعرش الملك .

(٣) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي ١٠٤ .

(٤) راجع مقالة الدكتور محمد محمدي في مجلة الدراسات الأدبية العـدد الثاني ١٩٥٩ بيروت .

البنكش والسكيسران:

نسب المسعودي كتابين آخرين في تاريخ الفرس إلى ابن المقفَّع أحدهما « البنكش والثاني السكيسران » فيقول : « ولا سنبديار في الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم وما كان من أفعال اسنبديار وما وصفناه فمذكور في الكتاب المعروف بكتاب « البنكش » نقله ابن المقفَّع في اللسان العربي »[١]

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب في معرض الحديث عن غلبة « ذو » على « افراسياب » وكيفية قتله وحروبه وما كان يهز الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل « سياوخش » وخبر « رستم دستان » : فهذا كله موجود مشروح في الكتاب المترجم المعروف بكتاب السكيسران »[٢].

وقد علق المستشرق الفرنسي «بارنيه دي مينار» في تحقيقه لكتاب « مروج الذهب » على ذلك بقوله : «إنا لا نعلم حتى اليوم شيئاً عن هذا الكتاب بالتفصيل ولم نسمع بهذا الاسم اللهم إلا أن يقال : إنه يجوز أن يكون هناك صلة بين هذا الاسم وكلمة «النسكين» وجاء في بعض النسخ اسم الكتاب « كيكلين » ولعله محرف عن «النسكين» ويزعم المستشرق « بلوشه » أن هذين

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٤٤ طبعة باريس (١٨٦١) م تحقيق بارينه دي مينار .

(٢) المصدر السابق صفحة (١١٨) .

الاسمين « البنكش والنسكـين» علمان لكتاب واحد ، وزعم كذلك إنهمـا تحريف لكلمـة « البندهش » ويقـول الأستاذ عبـاس اقبـال : «ويبدو لنا أن هـذا الحدس الـذي ذهب إليـه «بلوشـه» له نصيب من الصحـة إذ إن الوصف الـذي ذكره المسعـودي للكتـاب يكـاد يتفق تماماً مع متن النسخة البهلويـة لكتاب «البنـدهش» ثم إننا نجـد في تاريخ سيستان الذي يـرجع إلى تـأليف الجزء الأول منـه إلى ما بين سنوات (٣٩٠ ـ ٤٠٠ هـ) وهو كتاب مؤلف باللغة الفارسيـة ـــ ذكراً لهذا الكتاب وجاء اسمه « البندهش » بل أن مؤلف الكتـاب نقل في تـاريخه فصـلاً من هـذا الكتـاب الـذي جـاء اسمـه : «ابن دهشتي كبركان » والأقـرب إلى اليقين أن اسمه الصحيـح هكذا « ابن دهش كَبـركان » وإنمـا الخطأ والتحـريف جـاءا من النسَّـاخ ، وأن مـؤلف تاريخ سيستان إما أنـه كانت في يـده نسخة عـربية من هـذا الكتاب وإما وقف على نصوص من هذا الكتاب في مصادر تاريخية »[1] .

ويـزعم الأستاذ كريستين سن أن كلمة « السكيسـران » أقرب إلى الصواب من غيرها. إذ إن هذه الكلمة قد جاءت في اللغة البهلويـة « سكران » بفتح الأول والثالث أي رؤساء سگ وكلمة سـگ مخففة سگسي منسـوبة إلى سگستـان وهي مقاطعـة تقع في شـرقي إيـران ومعربها سجستان وتسمى اليوم سيستان ويرى الأستاذ ذبيح الله صفـا أن « كلمـة السكيسـران محـرفـة عن كلمـةٍ سكسيين أو سكـزيين أو

(١) انظر كتاب ابن المقفّع لعبّاس إقبال صفحة ٥٩ .

سكسيكين » نسبة إلى الشعب السجستاني ، ويؤيد هذا الاحتمال صلة موضوع الكتاب بأخبار السجستان وقصة رستم وقتل اسنبديار بيد رستم ، ثم قتل رستم بيد بهمن بن اسفنديار ، وغير ذلك من أساطير الفرس وأخبارهم التي وقعت أحداثها في هذه المنطقة »[1] .

---

(١) انظر حماسة سرائي درايران ، للدكتور ذبيح الله صفا صفحة ٤٣ طبعة طهران .

الفصل الرابع

النثر الفني في الأدب العربي :

يذهب أدباء العربية المتقدمون والكثير من الأدباء المعاصرون إلى أن العرب عرفوا منذ عصر الجاهلية النثر الفني الذي يحتفل به صاحبه ، ويصوغه صياغة بليغة فنية رائعة مؤثرة للتعبير عن أنبل المعاني وأسمى الأفكار بأسلوب مهذب منقح تظهر فيه آثار الفن وملامح الموهبة ويقولون : إن العرب منذ ذلك العهد كانوا يرسمون صوراً كثيرة من النثر الفني ، وكانوا يجيدون هذا الفن الأدبي إجادة بالغة ، ومن مظاهر هذا النثر الفني ما بقي من صوره المأثورة عن الجاهلين من خطب ووصايا ونصائح وأمثال وحكم .

لكن يذهب المستشرقون إلى أن النثر لا تعرفه الجاهلية ، ولم يشهده عصر صدر الإسلام ، وإنما نشأ على يد ابن المقفّع في صدر العصر العبّاسي الأول وممن ذهب إلى ذلك المستشرق الفرنسي « مارسيه »[1] والمستشرق الإنجليزي « جيب » وغيرهما وقد أكد عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين نظرية أن العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام لم يعرفا النثر الفني ، ولكنه اختلف معهم في تحديد نشأة النثر الفني في الأدب العربي ، فليس ابن المقفّع في رأيه هو أول من ظهر على يديه النثر الفني في الأدب

---

(١) انظر كتاب النثر الفني للدكتور زكي مبارك ١ / ٢٣ طبعة القاهرة .

العربي كما يرى المستشرقون ، وإنما النثر الفني عرفه الأدب العربي في أول القرن الثاني للهجرة قبل ابن المقفَّع على يد عبد الحميد الكاتب أستاذه سالم مولى هشام وغيرهما، ويقول في ذلك : « إن النثر العربي الذي ليس لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذي لا يعبر عن عاطفة من حيث هي عاطفة بل من حيث هي صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر أثر من آثار الحياة الإسلامية الجديدة ، وهو فن دعت إليه حاجة الحياة العربية ، ولذلك يجب أن ننزع من نفوسنا أن العرب قد استعارت النثر من غيرها من الأمم »[1] .

ولكن أدباء العربية المتقدمون يرون أن نزول القرآن الكريم ـ في رأيهم ـ في هذا المظهر الفني الرفيع والبلاغة الساحرة دليل على مذهبهم على أن العرب في الجاهلية كان لهم نثر فني ، وكانوا يجيدونه ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة، وإلا فكيف يتحداهم الله عزّ وجلّ بفن من البيان لم يعرفوه ؟ ! .

« وينفي الدكتور طه حسين التأثير الأجنبي في النثر الفني ولكنه يذهب إلى أن التأثير اليوناني أقوى من التأثير الفارسي . لأنه أثر في الفرس أولاً ولأنه كان عميق الجذور والأصول ثانياً »[2] .

وهنا أبو هلال العسكري في وصفه التأثير الفارسي في ثقافة

---

(١) انظر كتاب من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٢٨ طبعة دار المعارف بالقاهرة عام (١٩٥٧) .

(٢) المصدر السابق صفحة ٢٨ طبعة دار المعارف بالقاهرة (١٩٥٧)

عبد الحميد الكاتب الذي أكد الدكتور طه حسين أنه أول من ظهر على يديه النثر الفني يقول : « إنه استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي »(١) . ويتجه نحو ذلك الإتجاه الدكتور زكي مبارك فيقول : « إن عبد الحميد هو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية »(٢) . بينما يرجح الدكتور طه حسين أن عبد الحميد كان شديد الاتصال والتأثر بالثقافة اليونانية ، ويستدل على ذلك بنظام الفصول في كتابة عبد الحميد . فكل رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء ، ويؤدي كل جزء فكرة ومعنى ، وهو لا ينتقل من فكرة إلى أخرى إلا إذا استطاع أن يستريح ويتنفس ، وهذا النوع من التخطيط في الكلام من خصائص النثر اليوناني القديم ويستدل الدكتور كذلك بإسراف عبد الحميد في استعمال الحال ، وذلك من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم »(٣) .

ويقول أيضاً : «إن مدارس الأدب اليوناني كانت منبثة في الشرق كله وظلت كذلك حتى العصر العبّاسي ولكنها انحصرت في الأديرة »(٤) . ويؤخذ من كلام الدكتور طه حسين أن عبد الحميد

(١) انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري صفحة ٥١ وديوان المعاني للمؤلف ٢ / ٨٩.

(٢) انظر كتاب للنثر الفني للدكتور زكي مبارك ١ / ٥٧ طبعة القاهرة .

(٣) انظر كتاب بعد حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٤٢ ـ ٤٥ دار المعارف القاهرة (١٩٥٧) .

(٤) المصدر السابق صفحة (٤٤)

يعتبر من الكتاب الأوائل الذين وضعوا الأسس الفنية للكتابة العربية كما يقول ابن عبد ربه في وصفه « إنه أول من فتق أكمام البلاغة وسهّل طرقها »[1] .

وقد قال الدكتور زكي مبارك : « إنه ـ أي النثر ـ من صور العصر الجاهلي ، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره ، وهو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب يعطينا صورة للنثر الجاهلي ، وإن لم يكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصورة النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء »[2] .

« ونستخلص من كل ما تقدم أن النثر الفني في رأي المستشرقين وكثير من النقاد المعاصرين إن لم يكن ابن المقفّع قد أنشأه في الأدب العربي قد أسهم في إرساء دعائم النثر الفني في اللغة العربية أكثر من طبقته والطبقة التي سبقته من الكتّاب »[3] .

لقد علمت مكانة ابن المقفّع من النثر العربي ، بعد أن وقع عليه عبء النهوض به ، ويروى أن رجلاً سأل ابن المقفع : ما الذي مكّنك من البلاغة ؟ . قال : حفظ كلام الأصاح » ـ ويعني به كلام الإمام علي بن أبي طالب ـ كما كان تشجيع الخلفاء والوزراء

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ / ٥ طبعة القاهرة .

(٢) انظر النثر الفني للدكتور زكي مبارك صفحة ٣٣ وما بعدها .

(٣) انظر عبد الله بن المقفع لمحمد غفراني الخراساني صفحة (٤٤٩) دار القومية للطباعة والنشر د . ت .

وللكتّاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، وداعياً إلى ارتفاع شأنها وعلو مقامها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس الشديد بين الأدباء ، وتسابقهم إلى خدمة أصحاب السلطة ورجال الدولة حافزاً قوياً على تجويدها ، والتأنق في أساليبها ، ولئن كانت الكتابة في نهاية عصر بني أمية قد صارت صناعة عتيدة لها أصولها ومناهجها وقواعدها ولربما زاد فيها سالم مولى هشام وتلميذه عبد الحميد من تهذيب وصقل وجمال وروعة تصوير ، ولكنها نهضت وازدهرت في أوائل حكم بني العباس وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلماً للوصول إلى المجد والرقي والصعود إلى منصب الوزارة وغيره من أعلى المراتب في الدولة .

وقد نبغ في هذا الفن فحول وجهابذة لم يجد الدهر مثلهم في البلاغة والفصاحة ، والحذق والبراعة ، حتى بدوا فحول الشعراء في عظمة الجاه وسعة النفوذ والسلطان . والتقرّب إلى الولاة والحكام ، ومن هؤلاء كاتبنا عبد الله بن المقفّع .

لم يكن الكتّاب يحفلون بإبداء رأي أو تحوير كلام أو ابتداع فكرة أو إخراج حديث من صورة إلى صورة ، واستنتاج نتائج واضحة من مقدمات مفهومة أو نحو ذلك ، بل قلما نجد كاتباً ألف كتاباً أو كتب رسالة في موضوع معين معتمداً في ذلك على بنات أفكاره ، وبدائع خياله وروائع معانيه بل نراه يستشهد في ثنايا كلامه بالقول المأثور عند العرب نظماً كان أو نثراً دون الإتيان بشيء جديد ترتاح إليه النفس ويسكن إليه الفكر ويطمئن له القلب[1] .

(١) المصدر السابق (٤٥١) وما بعدها .

فلمـا جاء ابن المقفَّـع ابتدع أسلوبـاً جديـداً في الكتابـة أصبـح أسـاساً للكتّـاب من بعده ، وقـد آخى ابن المقفَّع في طـريقتـه بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية وكان رائداً لمن يـرغب في مزاولـة هـذه المهنـة حتى ضـرب المثـل بـه في البـلاغـة والبيـان على مـر الزمان .

وفي معـرض الحديث عن تمكن ابن المقفَّـع من اللغة العـربيـة وجعلها أداة طيعة في يده يقول خليل مردم : « ولقائل أن يقول : ما بال الناس يُغلون في رفع منزلة ابن المقفَّع وأكثر تآليفه مترجمـة عن الفارسية ليس له منها إلا الصوغ والرصف ، وقـد فاتـه أن الترجمـة في كثير من الأحيان أشق من التأليف والمجيدون فيها قليلون جداً ، والكتب التي تترجم في عصرنا الحاضر أوضح دليل فما كـان علمياً منها يتعثر بـالعجمة من حيث المصـطلحات ومـا كان أدبيـاً منها لم تأنس إليه نفوس القراء ، لبعده عن أساليب العـربية اللهم إلا النـذر اليسير فإذا قارنت هذه التراجم بترجمـة ابن المقفَّع ظهـر لك تفـوقه ونبـوغه على أن لـه من بنات أفكـاره مـا يستهـوي العقـول ويسحـر الألباب »[1] .

خصائص أسلوب ابن المقفَّع :

والخلاصة أن ما يمتاز به أسلوب ابن المقفَّع من خصـائص قلما تجتمع لكاتب آخر :

---

(١) انظر كتاب ابن المقفع لخليل مردم صفحة ٤١ وما بعدها طبعة دمشق .

أولاً : أن ابن المقفَّع لم يكن يشتهد في اسلوبه بشعر العرب ولا يتمثل بأمثالهم ، ولا يروي حكمهم أو مواعظهم ولا ينقل مأثور كلامهم إلا قليلاً ولا يسمّي فصحاءهم ولا يشير إلى أيامهم فهو من هذه الناحية إما ناقل عن الفارسية أو مستمد ذلك من ثقافته المزدوجة الفارسية والعربية التي كانت تسود عصره .

ثانياً : رغبته عن السجع من خصائص أسلوبه فهو لا يحرص عليه لئلا يوقعه في التعقيد ، بل يأخذ ما جاد به الخاطر عفواً ، وفي ذلك يقول عبد العظيم بن أبي الأصبع الكاتب الشاعر المصري في كتابه تحرير الحبير : « قد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بتة ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق من غير قصد ولا اكتساب ، وإن كانت كلماتهم متوازنة وألفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائعة وفصولهم متقابلة ، وتلك طريقة الإمام علي ـ عليه السلام ـ ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفّع وسهل بن هارون[1] ، وأبي عثمان الجاحظ[2] وغير

(١) هو سهل بن هارون توفي (٨٣٠) شاعر وناثر عربي أصله فارسي كان شعوبياً يتعصب على العرب وكان قيم بيت الحكمة في عصر المأمون . كان يعمل الأسحار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم من مؤلفاته : « ثعلة وعفرة » على مثال « كليلة ودمنة » (ويزيد عليه بحسن نظمه قاله المسعودي) وله كتاب الأخوان والمسائل وتدبير الملك والسياسة ، والنمر والثعلب .

(٢) هو عمرو بن حجر الجاحظ نحو (٧٧٥ ـ ٨٦٨) أديب عباسي ولد وتوفي بالبصرة نسبت إليه فرقة الجاحظية وهي أحد فرق المعتزلة . من مؤلفاته الكثيرة. الحيوان في سبعة أجزاء والبيان والتبيين، والبخلاء والتاج .

هؤلاء من الفصحاء البلغاء »[1] .

ثالثاً : ومن خصائص أسلوبه أيضاً سهولة اللفظ فيختار ابن المقفّع في تأليفة ألفاظاً سهلة جميلة واضحة لا غرابة فيها ولا تعقيد وليست مخالفة للقياس ولا نابية عن الأذواق .

رابعاً : حرصه على الإيجاز[2] فنرى كاتبنا شديد الحرص على عدم الإطناب مع الوفاء بالمعنى ـ واستيفاء المطلوب دون الإخلال بالمراد .

خامساً : الإقلال من الترادف والمتشاكل من الجمل ، ويذهب في ذلك مذهب الاقتصاد . ويحرص على أن لا يلبس المعنى ثوباً ضافي الذيول ولا يسرف في اللفظ أو يكثر من المترادف إلا ما جاء منه إيضاحاً للمعنى بحيث لا يمكن الاستغناء عنه بصاحبه .

سادساً : تصوير الأفكار الدقيقة في القالب المنطقي حيث يلتمس العلة لكل حكم ، والسبب في كل فكرة ، بربط الأمور بأسبابها ، واستنباط النتائج من مقدماتها ، وتلك طريقة فارسية في

---

(١) انظر رسائل البلغاء لمحمد كرد علي صفحة ١٣ طبعة القاهرة (١٩١٣) وأيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٩٤ طبعة القاهرة وقد طبع كتاب تحرير التحبير في مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ، ونشره الدكتور حنفي محمد شرف .

(٢) لا نقصد من ذلك أن إيجازه كإيجاز الأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل أو كإيجاز الحجاج بن يوسف . إذ إن أوصاف الكتابة وأساليبها أمر اعتباري نسبي يتفاوت ضعفاً وقوة ، كما يختلف باختلاف العصور وتطور البيئة والحضارة .

أسلوب الكتابة كما يقول نائل المرصفي في مقدمة كتاب كليلة ودمنة[1] .

ويقول محمد كرد علي في وصف أسلوب ابن المقفَّع : « كأن ألفاظ ابن المقفَّع منخولة في منخل دقيق نفى الزؤان مما يحمل ، أما التراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض ، على غاية الإحكام ثم هو ليس في ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف يعطي منها بمقدار ثم يلبس معانيه حلة قشيبة ، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز .

ومعانيه كلها ناصعة وألفاظها كلها فصيحة ، على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب إلا بضم أجزائه بسلك واحد ، لتصح المعاني وهي سر البلاغة والفصاحة والروعة وهذا كان ظاهراً في كلام ابن المقفَّع إذ هو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق ، ويحاول أبداً نقل فكره إلى من يتلو كلامه واضحاً جلياً ، فكأنه يتوخى الإفهام أولاً ، وبلاغته في كثرة إفهامه . . . ويغترف بيانه من صميم القلب ، فجادت لذلك طريقته وأسر القلوب أسلوبه ، وما خرج عن قانون الفطرة في كل ما خطه بنانه ، وقذف به جنانه ليس في كلامه مقال لعائب ، ولا في إطنابه واقتضابه مطعنٌ لطاعن »[2] .

---

(١) انظر مقدمة كليلة ودمنة صفحة ٧ تحقيق نائل المرصفي .

(٢) انظر كتاب أمراء البيان لمحمد كرد علي ١ / ١٠٩ وما بعدها الطبعة الثانية القاهرة .

ويقول الدكتور طه حسين : «إن ابن المقفَّع كان عظيم الحظ من الثقافة العربية والبهلوية واليونانية »[1] .

ويقول عميد الأدب العربي في معرض الحديث عن أسلوب ابن المقفَّع : « عندما تقرأون كتابة ابن المقفَّع تجدون فيها شيئاً من الإلتواء والدوران ونحس ونحن نقرأ أن الكاتب يجد مشقة في التعبير عن المعاني التي يحسها ونحس هذا الضعف الذي يكلف الكاتب للعربية ، نحسه لا بعقولنا فحسب بل بآذاننا ، فنجد ابن المقفَّع يكلف النحو العربي تكاليف ربما لم يكن النحو العربي مستعداً لأن يحتملها، وابن المقفَّع مع أنه زعيم الكتاب وصاحب الآيات وواضع المثل الأعلى للكتابة ، لم يكن عظيم الحظ من الفصاحة والنحو العربي والمقارنة بينه وبين ما كتب أصحاب النحو وغيرهم تظهركم على أنه لم يكن أكثر من مستشرق يحس اللغة العربية والفارسية ويبذل جهداً عظيماً فيوفق كثيراً ويخطىء أحياناً »[2] .

ثم يبرر الدكتور هذا النقص بقوله : « وليس هذا يطعن في كفاية ابن المقفَّع ولا مقدرته الخاصة فقد كان يكتب في أول عهد النثر الفني بالوجود ، فليس غريباً ألا يستقيم له النثر كما كان يستقيم لرجل كعبد الحميد . . . فليس على ابن المقفَّع حرج في أن

(١) انظر كتاب من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٤٦ طبعة القاهرة .

(٢) المصدر السابق ٣٢ وما بعدها .

تضطرب لغته وتستعصي عليه وإنما الحرج على الذين يريدون أن يتخذوا ابن المقفّع مثلا وآية للبلاغة ، دون إمعان أو روية ، وأنا أنصح لطلاب الأدب أن يحتاطوا عندما يريدون أن يتخذوا ابن المقفّع أنموذجاً للتعبير والبلاغة »[1] .

« ومن الإنصاف في القول : « إن الدكتور طه حسين قد هون من شأن بلاغة ابن المقفع وتعبيره وأدائه وأسلوبه وبيانه ، والواقع أن ابن المقفّع لم يكن مستشرقاً كالمستشرقين كما يرى عميد الأدب العربي بل كان كاتباً عربياً ، وإن كان انحدر من أصل فارسي فقد نشأ في بيئة عربية بثقافتها ، وأصبحت اللغة العربية هي لغته الوحيدة في الإنتاج والكتابة ، فشتان بينه وبين المستشرق الذي تعتبر اللغة العربية لغة ثانوية له . وأما قوله : «وليس هذا يطعن في كفاية ابن المقفّع ولا مقدرته الخاصة . . . » فنحن مع الدكتور طه حسين في أنه لو سلمنا بوجود غموض أو التواء في بعض جمل ابن المقفّع فإن هذا لا يطعن في مقدرته ، وذلك أن محافظة الكتاب على مستوى ثابت أمر غير معهود في تاريخ الآداب ، ولم يسبق أن عرف به كاتب من الكتّاب وهذا مما اتفق عليه الأدباء »[2] .

ويوازن الدكتور طه حسين بين عبد الحميد الكاتب وبين ابن المقفع ويخرج بالنتائج الآتية :

---

(١) المصدر السابق صفحة ٥١ طبعة دار المعارف القاهرة .

(٢) انظر مقدمة يوسف أبو حلقة لكتاب الأدب الصغير والكبير ورسالة الصحابة صفحة ٢٦ طبعة بيروت . د . ت .

١ ـ «إن هذين الكاتبين امتازا امتيازاً ظاهراً في هـذا العصر حتى أصبحا رمزاً لهذا النثر الفني وعنواناً للكتابة الفنية »[١] .

٢ ـ « لا يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى واستقامة اسلوب ، فهو أحسن من كتب العربية ومرَّنها وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤديها وربما كان الأستاذ المباشر للكتاب والمترسلين »[٢] .

٣ ـ «ويرى أن ابن المقفّع كان يكتب في أول عهد النثر الفني بالوجود فليس غريباً أن لا يستقيم له النثر ، كما كان يستقيم لرجل كعبد الحميد ، وهذا الرأي يسري أيضاً على عبد الحميد الكاتب إذا إنه أسبق زمناً من ابن المقفّع بالنسبة إلى نشأة النثر الفني ، فمن الأولى ألا يستقيم له النثر ومهما كان فإننا نستطيع أن نقول في هذا المقام : إن كاتباً كابن المقفّع بانتاجه الغزير في النواحي الفكرية والأدبية لا يعدله كاتب في اللغة العربية وإن كان للسابق كل الفضل وما أحسن قول بعض الباحثين : « لو عرفنا أن ابن المقفّع قد قتل ولم يتجاوز الأربعين من عمره عرفنا قدر نبوغه وعرفنا أي عقل كبير كان يشغل رأسه »[٣] .

ويقول المستشرق الألماني « يوهان فك » : «إن ابن المقفّع

---

(١) انظر كتاب من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين صفحة ٤٠ وما بعدها ، طبعة القاهرة .

(٢) المصدر السابق صفحة ٤٨ وما بعدها .

(٣) انظر كتاب عبد الله بن المقفع لمحمد غفراني الخراساني ٤٦٣ دار القومية للطباعة والنشر د. ت.

سَمَقَ (١) في عصره مجده غير مزعزع ، وعدّ من البلغاء اللامعين في العالم العربي ، وإن اللغة، التي كتب بها ليست هي العربية القديمة ، فإنه بموازنة هذه بتلك نجد لغة ابن المقفّع سوية شفافة مبسطة حسب أغراضها وبدلاً من الثروة الفياضة في المادة البدوية القديمة تكتفي لغة ابن المقفّع إلى حد بعيد بالتعبيرات العامة ، وتؤثر تصوير الخصائص البارزة بعبارات مقاربة ، كما يعبر أيضاً استعماله اللغوي في دائرة تركيب الألفاظ وصياغتها عن طموحه الدائم إلى التبسيط الموائم للغرض ، فكثير من صيغ الأسماء في العربية القديمة يقل عنده ، أو ينعدم تماماً وأخيراً نجد تركيبه النحوي أيضاً واضحاً شفافاً ، وهو يتجنب كذلك الجمل التعبيرية المتنوعة الدلالة وصيغ التعجب والاستغاثة ويتفادى رص الكلام والتداخل العسير الفهم وما شاكل ذلك مما يستفيض في لغة البدويين »(٢) .

---

(١) السموق : العلو ، وسمق النبات أي علا وطال .

(٢) انظر كتاب العربية ليوهان فلك صفحة ٥٨ وما بعدها ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

ثم يعلق يوهان فك على ذلك بقوله : وهذا التطور في الأسلوب عند ابن المقفّع دعا إليه الانتقال من الحياة البدوية إلى حضارة المدن وتغلغل غير العرب في مناطق الأدب ، وبهذا الأسلوب المهذب لا يسبب استواؤه وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام ، وتلك اللغة السهلة الواضحة التي سرعان ما احتذيت واستعملت في الأدب من المثقفين جميعاً في عالم الإسلام تراجع في ذلك العهد الطابع الوحشي للعربية القديمة بثروتها في الألفاظ والقوالب »[1] .

---

(١) انظر كتاب عبد الله بن المقفّع لمحمد غفراني الخراساني صفحة ٤٦٤ دار القومية . د . ت .

الفصل الخامس

كليلة ودمنة وموقعه من التراث العالمي :

يقول ابن النديم : « وكان ممن يعمل الأسحار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفَّع ، وسهل بن هارون وعلي بن داود وغيرهم وأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره فقيل : عملته الهند . وخبر ذلك في صدر الكتاب ، وقيل : عملته ملوك الاشكانية ونحلته الهند ، وقيل : عملته الفرس ونحلته الهند وقال قوم : إن الذي عمله بزرجمهر الحكيم « أجزاء والله أعلم »[1] .

وقال ابن خلكان « يقال إن ابن المقفَّع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة ، وقيل لم يضعه ، وإنما كان باللغة الفارسية فعربه ، ونقله إلى العربية وإن الكلام في أول هذا الكتاب من كلامه »[2]

وقال أبو عبد الله محمد بن حسين بن عمر اليمني : «إن عبد الله بن المقفَّع المدّعي نقل هذا الكتاب من اللغة الفارسية هو واضعها ونسبه إلى عناية الفرس بنقله تشييداً بذكرها وتنبيهاً على مآثرها ويذهب أبو عبد الله هذا إلى أبعد من ذلك ويزعم أن ابن

(١) انظر كتاب الفهرست لابن النديم صفحة ٣٠٤ وما بعدها طبعة القاهرة .

(٢) انظر كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٢٦٧ طبعة القاهرة .

المقفّع قد أخذ معاني أشعار حكماء العرب فنثرها وألف عليها الكتاب »[1] .

إن الآراء التي تقول : إن ابن المقفّع هو واضع كتاب كليلة ودمنة لم يعد لها وزن علمي اليوم بعد أن كشف المستشرق الألماني « هرتل » كتاب « بنجا تنترا » ـ خمسة أسفار ـ وهو كما قلنا آنفاً أصل الكتاب باللغة السنسكريتية الهندية فقد أصبح عبثاً ولغواً الإستناد إلى بعض المتقدمين فيما ذهبوا إليه في شأن تأليف الكتاب إذ من المؤكد أن الكتاب قد وقع في أيدي الفرس فنقلوه إلى البهلوية وأضافوا إليه قصصاً أخرى . ثم جاء ابن المقفّع ونقله إلى العربية ، وكان نقله بداية عهد جديد لانتشار الكتاب في الأوساط الأدبية العالمية . وترجم الكتاب بعد ذلك إلى أكثر من خمسين لغة من اللغات الحيّة .

من هنا يتبين لنا أهمية الدور الذي لعبه ابن المقفّع في ميدان الأدب العربي وانتشاره ، ويمكن القول بأن جهده فيه لا يقل عن الجهود التي بذلها أطباء العرب والفرس وفلاسفتهم في ميدان العلم .

طبعات الكتاب المشهورة :

أول من قام بطبع نسخة كليلة ودمنة العربية المستشرق الفرنسي

---

(1) انظر كتاب مضاهاة أمثال كليلة ودمنة صفحة (٧) تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم طبعة بيروت عام (١٩٦١) .

« سيلفستر دوساسي » في باريس عام (١٨١٦)[١] وقدم له مقدمة باللغة الفرنسية كشف فيها عن النواحي المتعددة التاريخية والأدبية للكتاب ، ثم حقق المستشرق الإيطالي «جويدي » نسخة « دوساسي » وقارنها ببعض النسخ المخطوطة للكتاب التي عثر عليها في إيطاليا ثم كتب عليها تعليقاً علمياً أخذ فيه على دوساسي بعض آرائه وبالرغم من ذلك لم تفقد نسخة دوساسي شهرتها الذائعة، وطبع الكتاب لأول مرة في مصر في عهد محمد علي طبعة معتمدة على نسخة دوساسي عام (١٢٤٨ هـ) ثم طبع مرة أخرى عام (١٢٤٩ هـ) وأضيف إليه باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين عام (١٢٥١ هـ) كما اعتمد خليل اليازجي في طبع كليلة ودمنة في بيروت عام (١٩٠٧)[٢] على النسخة المطبوعة في مصر ونسخة مخطوطة يرجع تاريخ نسخها إلى عام (١٦٠٧) على وجه التقريب .

ومن النسخ المطبوعة المشهورة للكاتب أيضاً نسخة الأب لويس شيخو والتي طبعت في بيروت عام (١٩٠٤) واعتمد الأب شيخو في طبع هذه النسخة على نسخة خطية عثر عليها في « حماة » إحدى مدن سوريا ، ويرجع تاريخ نسخها إلى عام (١٢٠٠ هـ) ونسخة مخطوطة أخرى يرجع تاريخها إلى عام (٧٣٩ هـ) وجدد

---

(١) طبع قسم منه باعتناء هنري شولتنس « في ليدن عام (١٧٨٦) انظر معجم المطبوعات صفحة ٢٥٠ طبعة سركيس مصر (١٩٢٨) .

(٢) انظر معجم المطبوعات أيضاً صفحة (٢٥١) .

طبعــه فـي بيــروت عــام (١٩٠٨ ثـم ١٩٢٢ ـ ثم ـ ١٩٢٣ ـ ثـم ـ ١٩٦٠) وطبع الكتـاب في دمشق كـذلـك بتحقيق أحمــد حسن طبـارة ، ويقـول في مقـدمـة الكتـاب : « ظفـرت على نسخــة من الكتاب مشتملة على ست وثمانين صورة ذات ألوان بـديعة ونقـوش جميلة في مكتبة الشيخ جمـال الدين أفنـدي القاسمي الـدمشقي ، وقـد كتب في آخرهـا : إن نسخها قـد تم في العـاشـر من جمـادى الأولى سنـة ست وثمـانين بعـد الألف على يـد أبي المنـا بن نسيم النقاش ، فعنيت أولاً بمقابلتها على ما توفّر لـديّ من نسخ الكتـاب كنسخـة باريس المـطبوعـة (١٨١٦) ونسخة مصـر المطبـوعة عـام (١٢٩٧ هـ) ونسـخ بيروت الشهيـرة[1] ـ ومن الغـريب أن تـاريـخ الطبع لم يذكر لا في صـدره ولا في ختامـه ، كما لم يـذكر النـاشر تاريخ كتابة مقدمته للكتاب أيضاً وعلى ظهـر الكتاب وردت العبـارة التالية « كليلة ودمنة لـ «بيدبا » الفيلسوف الهندي عربها من الفهلوية المنشىء البليغ واللغوي الشهير عبد الله بن المقفَّـع ، طبعة جـديدة مزدانة بست وثمانين صورة مأخوذة عن نسخة خطية قديمـة صححها وعلق حواشيها بكمال الدقة والاعتناء « أحمد حسن طبارة » بـرخصة مجلس معارف ولاية سورية الجليلة ، كمـا جاءت في آخـر الكتاب العبـارة التـاليـة : «ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلي العـظيم ، تم الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً » ـ

ـ وأغلب الظن أن تاريخ ترجمة الكتاب وقع بعد عـام (١٩٠٧)

(١) انظر المصدر السابق صفحة ٢٥١ .

وذلك لأن أحمد حسن طبارة يشير في مقدمة الكتاب إلى نسخ بيروت الشهيرة ومن بين هذه النسخ نسخة خليل اليازجي التي طبعت عام (١٩٠٧)[١]. وقد ذكر بروكلمان أن « حلمي طبارة » نشر كتاب « كليلة ودمنة » عام (١٨٩٦) ولم نعرف سبب تحريف اسم الناشر «أحمد حسن طبارة » إلى « حلمي طبارة » ولعله صادر عن الخطأ في الطبع أو الترجمة »[٢] .

ومن النسخ الشهيرة الأخرى للكتاب نسخة محمد حسن نائل المرصفي التي طبعت في مصر عام (١٩١٢) ثم جدد طبعها ثلاث مرات فكانت الطبعة الثالثة عام (١٩٢٧) والطبعة الرابعة عام (١٩٣٤) ولم يشر نائل المرصفي في مقدمته إلى النسخ التي اعتمد عليها في نشر الكتاب وهو يشتمل على مائة منظر مصور في طبع أنيق ويضاف إلى ذلك أن نائل المرصفي قد قدم للكتاب دراسة وافية عن حياة عبد الله بن المقفّع وعن كتاب كليلة ودمنة .

ـ ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى نسخة المحقق الكبير الدكتور عبد الوهّاب عزام المعروفة بطبعة دار المعارف ، فإنها تعد من أجمل نسخ الكتاب المطبوعة في العالم ، وقد اعتمد الدكتور في طبع هذا الكتاب على نسخة قديمة يرجع تاريخ كتابتها إلى عام (٦١٨ هـ) أي أقدم من نسخة الأب لويس شيخو بأكثر من مائة

(١) انظر كتاب عبد الله بن المقفع لمحمد غفراني الخراساني ٢٣٧ دار القومية د . ت .
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣/ ٩٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

عـام وقد طبعت دار المعـارف هذه النسخـة أثناء الحـرب العـالميـة الثانية عـام (١٩٤١) وفيها صـور ملونة في غـاية الجمـال والروعـة على طراز الفن الفارسي ، وأجمـل من ذلك تلك المقـدمة العلميـة التي قدم بها الدكتور للكتاب وهي تعتبر من أهم الدراسات التي قام بها الباحثون والمستشرقون لكتاب كليلة ودمنة[١] .

أبواب الكتاب :

قـد أجمـع النقّـاد على أن البـابين الآخيـرين[٢] قـد زيـدا على النسخـة الفهلوية بعـد نقلها إلى العـربية ، ومهمـا كان فـإن معـظم أبواب كليلة ودمنة من أصل هندي وقد تناولتها أيدي الفرس فجمعوا شتاتها وأضـافوا إليهـا أبوابـاً أخرى ، وأطلقـوا عليها اسمي الثعلبين «كليلة ودمنة» اللذين ورد ذكرهمـا في الباب الأول من الكتـاب كما فعلوا ذلـك بالنسبـة لتسمية كتـاب « خداينـامه » وقـد سبق ذكـره ثم ترجم ابن المقفّع الكتـاب إلى العربيـة وتصرف في ألفـاظه ومعـانيه وترتيب أبوابه ومضامينه بحيث جعله ملائماً للذوق العربي ومضامين أبواب الكتاب هي :

١ ـ باب مقدمة بهنوذ بن سحوان .

٢ ـ باب عرض الكتاب .

---

(١) انـظر كتـاب عبـد الله بن المقفـع لمحـمـد غفـراني الخـراسـاني صـفحـة ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ـ طبعة دار القومية .

(٢) انظر مقدمة بهنوذ بن سحوان ، وباب عرض الكتاب .

٣ - باب بعثة الملك كسرى أنو شروان برزويه إلى الهند .
٤ - باب برزويه لبزرجمهر بن البختكان .
٥ - باب الأسد والثور .
٦ - باب الفحص عند أمر دمنة .
٧ - باب الحمامة المطوقة .
٨ - باب البوم والغربان .
٩ - باب القرد والغيلم[1] .
١٠ - باب الناسك وابن عرس .
١١ - باب الرجذ والسنور.
١٢ - باب الملك والطائر فنزة .
١٣ - باب الأسد وابن آوى الناسك .
١٤ - باب اللبؤة والأساور والشغبر[2] .
١٥ - باب إيلاذ وبلاذ وإيرخت .
١٦ - باب الناسك والضيف .
١٧ - باب السائح والصائغ .
١٨ - باب الملك وأصحابه .
١٩ - باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

وهو آخر الكتاب وتلك خلاصة تضمنته أبواب كتاب كليلة ودمنة من المضامين والجدير بالذكر أن أبواب الكتاب بصورة عامة مهما

---

(١) ذكر السلحفاة .
(٢) هو اسم لابن آوى .

تنوعت أهدافها واختلفت أغراضها ، فهي تمثل سياسة الملك وتدبيره ، ثم هي حافلة بالأمثال والحكم في تعليم الملوك وتأديبهم ومن ثم ذهب بعض الباحثين إلى أن باب الأسد وابن آوى الناسك يعدّ تنظيماً كاملاً لشؤون الملك وكيفية حكم الرعية وسياسة شؤون الناس وتوجيههم توجيهاً صحيحاً[1] .

أبواب النسخة السريانية القديمة :

ـ ونعني بالنسخة السريانية القديمة النسخة التي ترجمها الراهب الإيراني « بود » في عام (٥٧٠ م) أي قبل وفاة الملك أنو شروان بتسع سنين وكانت محجوبة عن نظر الباحثين ، حتى عثر عليها المستشرق الألماني ، « هرتل » في دير ماردين بآسيا الصغرى ، وطبعها لأول مرة المستشرق الألماني « بيكل » في عام (١٨٧٦ م) ـ (١٢٩٣ هـ) في مدينة « ليبزك » وتحتوي هذه النسخة على عشرة أبواب وهي :

١ ـ باب الأسد والثور .
٢ ـ باب الحمامة المطوقة .
٣ ـ باب القرد والسلحفاة .
٤ ـ باب النساك وابن عرس .
٥ ـ باب السّنور والجرذ .

---

(١) انظر كتاب ابن المقفع لحنا الفاخوري صفحة ٤٢ طبعة القاهرة .

٦ ـ باب البوم والغربان .
٧ ـ باب الملك والطير .
٨ ـ باب الأسد وابن آوى .
٩ ـ باب البلار « إيلاذ » .
١٠ ـ باب ملك الجرزان ووزرائه[١] .

والباب الأخير لا يوجد في النسخة الفارسية لأبي المعالي كما أنه لا يوجد في أكثر النسخ العربية للكتاب ، ولما كان هذا الباب موجوداً في النسخة السريانية القديمة ، وبعض النسخ العربية المخطوطة في مكتبات أوروبة فقد نشره المستشرق الإلماني «نولدكه » مستقلاً في عام (١٨٧٩ م) مع ترجمته الإلمانية وحققه وعلق عليه وراجعه على مختلف النسخ العربية المخطوطة للكتاب وذهب إلى أن هذا الباب قد ألفه الفرس في عهد الملوك الساسانيين وأضيف إلى سائر الأبواب الهندية للكتاب ، بعد نقلها إلى الفهلوية ، ويبدو أن ترتيب أبواب النسخة السريانية القديمة للكتاب يختلف عن ترتيب أبواب النسخة العربية لابن المقفّع كما أن النسخة السريانية القديمة تخلو من ستة أبواب توجد في النسخ العربية على اختلاف طبعاتها ، ومنها « السائح والصائغ » الذي عثر عليها ضمن الباب الأول من إحدى نسخ « كتاب بنجاتنترا »[٢] وإن خلو النسخة السريانية القديمة من هذه القصة يعد دليلاً آخر على

---

(١) انظر كتاب ابن المقفع لعباس إقبال صفحة ٤٣ طبعة برلين .
(٢) انظر الصفحة ٢١٧ من هذا الكتاب ـ أي بنجا تنترا .

بطلان ما زعمه (دينسن رس) « من أن ابن المقفّع ترجم الكتاب إلى العربية عن النسخة السريانية القديمة » فمن أين أتى إذن بهذا الباب ؟ . فلا شك أنه كانت لديه نسخة أخرى من الكتاب غير السريانية وما هي إلا النسخة البهلوية التي نقلها الفرس عن السنسكريتية لو سلمنا جدلاً أن « بود » نقل الترجمة السريانية عن السنسكريتية مباشرة(١) .

ترجمات الكتاب المختلفة:

يقول ابن النديم في كتابه «الفهرست» : « لكتاب كليلة ودمنة جوامع وانتزاعات عملها جماعة ، منهم عبد الله بن المقفّع وسهل بن هارون ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، والمربد الأسود الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس(٢) .

ويدل كلام ابن النديم على أن الكتاب بعد ترجمة ابن المقفّع لخص وهذب مرة أخرى ، كما لا نعلم أن تلخيص ابن المقفّع كان من ترجمته العربية أو من النسخة الفهلوية وكذلك الحال بالنسبة لترجمة « سهل بن هارون » وأبي نوح سلم الحراني » والمربد

---

(١) انظر كتاب عبد الله بن المقفّع لمحمد غفراني الخراساني (٢٣٩) دار القومية للطباعة والنشر.

(٢) انظر كتاب الفهرست لابن النديم صفحة (٣٠٤) . وما بعدها .

الأسود » وإني أرجح أن يكون هؤلاء الثلاثة قد هذبوا الكتاب من الترجمة العربية لابن المقفّع[1] .

قام إبراهيم عزوز المفتش بوزارة التربية والتعليم المصرية في القاهرة بتلخيص بعض أبواب « كليلة ودمنة » في أسلوب سهل ممتع يجذب الناشئين من طلبة المدارس الإعدادية المصرية لقراءته ، يقول المؤلف في مقدمة الكتاب :

« قد ساءني أن رأيت النشىء يعرضون عن هذا التراث . . . » ثم يبدأ المؤلف بعرض مقدّمة علي ابن الشاه الفارسي في اسلوب قصصي عرضاً موجزاً يبين فيه سبب تأليف كتاب كليلة ودمنة ثم يختار لكتابه بابين من أبواب الكتاب وهما :

- باب الأسد والثور — وباب الفحص عن أمر دمنة —

ويقول حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون : « نقل الكتاب من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي ، وذلك في سنة (١٦٥ هـ)[2] وقام كثير من الشعراء بنظم كليلة ودمنة وعلى رأسهم أيان عبد الحميد اللاحقي حيث أشار عليه يحيى بن خالد البرمكي بنظم الكتاب . فنظمه أيان وأهداه إلى يحيى ونظم أيان منظومته من المزدوج ،

---

(١) انظر عبد الله ابن المقفّع لمحمد غفراني الخراساني (٢٤٩) طبعة دار القومية

(٢) كشف الظنون ٢ / ١٥٠٨ .

وكان كما يصفه ابن النديم قد اختص من بين أترابه بنقل النثر إلى الشعر المزدوج(١).

هــذا كــتــاب أدب ومــحــنــه وهــو الــذي يــدعى كليلة ودِمْنَه
فــيــه دلالات وفــيــه رشــد وهــو كــتــاب وضعتــه الهنــد
فــوصــلوا الآداب كــل عــالــم حــكــايــة عن ألــسن البهائم
فــالــحكــمــاء يعــرفــون فضله والــسخــفــاء يشــتهــون هزلــه
وهــو عــلى ذاك يــسيــر الــحفظ كــذا عــلى اللســان عــنــد اللفظ

إلى أن يقول :

أشــهــد أن الله فــرد واحــد أقــرّ أو أنــكــر ذاك جــاحدُ
لــيس لــه كــفــؤا ولا نــد أحــد لــم يــلد الله ولا لــه ولد
وإنــنـي بــمــا عــملت مــرتــهــن مــا كــان منــه من قبيــح وحسن

إلى أن ينتهي عرض الكتاب ثم تتلوه أبيات تتعلق بباب برزويه الطبيب ومنها قوله :

وإن مــن كــان دنــيء الــنــفس يــرضــى من الأرفــع بالأخس
كمثــل الــكلب الــشقــي البــائس يفــرح بــالعــظم العتيق اليابس

جاء هذا المثل في ذم الدنيا حيث يقول ابن المقفّع على لسان برزويه : « الدنيا كالماء الملح الذي لا يزداد شاربه شرباً إلا ازداد

---

(١) انظر كتاب الفهرست لابن النديم صفحة (١١٩) .

عطشاً ، وكالعظم الذي يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم ، فلا يزال يطلب ذلك اللحم حتى يدمي فاه»[1] .

ومن الشعراء الذين نظموا كتاب كليلة ودمنة كذلك سهل بن توبخت الحكيم ــ ويقول حاجي خليفة : « إن سهل بن بوبخت أهدى منظومته ليحيى بن خالد البرمكي وزير المهدي وهارون الرشيد ، ونال جائزة مقدارها ألف دينار »[2] ونظم الكتاب أيضاً علي بن داود كاتب زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد وبشر بن المعتمر ــ وقد أشار إليه ابن النديم في كتابه « الفهرست »[3] ثم نظمه أبو المكارم أسعد بن مماتي المصري في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي[4] .

ونظم الكتاب أيضاً الشاعر ابن الهبارية[5] من بحر الرجز المزدوج القافية وسمى منظومته «نتائج الفطنة في نظم كليلة

---

(١) انظر كليلة ودمنة صفحة ٩٩ وما بعدها تحقيق خليل اليازجي .

(٢) انظر كتاب سبك شناس للملك الشعراء بهار ٢ / ٢٥١ طبعة طهران .

(٣) انظر كتاب الفهرست لابن النديم صفحة (٣٠٥) طبعة ليبزيك .

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٨٤ طبعة القاهرة .

(٥) هو الشريف نظام الدين أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس المعروف بابن الهبارية الهاشمي والملقّب بنظام الدين، وقد توفي بكرمان عام (٥٠٤ هـ) وقد أثبت نسبته بنفسه في صدر الكتاب وطبع الكتاب في مصر عام (١٢٩٢ هـ) وفي بيروت عام (١٩٠٠) . وفيات الأعيان ٢ / ١٩ .

ودمنة »[1] وله كتاب آخر باسم « الصادح والباغم » في معارضة كليلة ودمنة وأهدى منظومته إلى أبي الفضل أسعد بن موسى القمي الملقب بمجد الملك وكان يتولى رئاسة ديوان الاستيفاء في عهد ملكشاه السلجوقي . وقد رتب ابن الهبارية منظومته على خمسة عشر باباً ومقدمة وخاتمتين ومدح مجد الملك في مقدمته بقوله :

فارج كل كربة وضنك ‌ ‌ ‌ يصاحب الأصحاب مجد الملك
مشيد الدولة شمس الدين ‌ ‌ ‌ مؤمل كل بائس ومسكين
الطاهر الأعراق والأخلاق ‌ ‌ ‌ وقاسم الآجال والأرزاق
وليس للملك من الآلات ‌ ‌ ‌ غير ابن موسى سيد الكفاة
قد غني الملك برأي مجده ‌ ‌ ‌ عن ماله وجنده وجدِّه
لأجله نظمت ما قد نثروا ‌ ‌ ‌ فإنني بمدحه مشتهر

وكما يبدو من مقدمة ابن الهبارية أنه بدأ نظم الكتاب وهو في طريقه إلى كرمان إذ يقول :

وكنت مذ فارقت أصبهانا ‌ ‌ ‌ مستبدلاً من ربعها كرمانا
وصرت عند سيد الملوك ‌ ‌ ‌ إيران شاه مؤئل الصعلوك

ومنها :

وهو بمدحي وبشكري أولى ‌ ‌ ‌ لا بدَّ لي من أن أقول قولاً

---

(١) انظر معجم المطبوعات العربية لسركيس صفحة (٢٧١) طبعة مصر .
(٢) انظر كتاب نتائج الفطنة لابن الهبارية صفحة (٦ وما بعدها ١٠) تحقيق الخوري نعمة الله الأسمر المازوني في بيروت ..

وقلت إن النعمة الجزيله جزاؤها بخدمة جليله
لأنظمن النثر في كليله وإن غدت خواطري كليله [1]

وقد نظم الخوري نعمة الله باب « الحمامة والثعلب ومالك الحزين » وألحقه بكتاب ابن الهبارية ويقول في ذلك : « ليس هذا الباب منظوماً في الأصل ، والذي أراه أن الناسخ أغفله لا الناظم فالذي نظم الكتاب كله في عشر ليال[2] لا يعجز عن هذا الباب الوجيز ، وقد نظمته كيلا يبقى غريباً » وقد نسب بعض الباحثين إلى ابن الهبارية كتاباً آخر في نظم كليلة ودمنة بعنوان « درر الحكم في أمثال الهنود والعجم » كما نسب البعض الآخر هذا الكتاب لعبد المؤمن بن الحسن الصاغاني ، أحد علماء القرن السابع الهجري ويقول المستشرق الفرنسي «سليفستر دوساسي » في مقدمته الكتاب : كليلة ودمنة : نظم شاعر يدعى عبد المؤمن بن الحسن ابن الحسين الصاغاني كتاب كليلة ودمنة وسماه « درر الحكم في أمثال الهنود والعجم » وقد استغرق نظمه للكتاب ثمانين يوماً ، وكان الفراغ منه يوم العشرين من شهر جمادى الأولى عام

---

(١) المصدر السابق مقدمة الناظم صفحة ٧ وما بعدها .

(٢) وقوله :

تم الكتاب وانقضت أبوابه كالدر إذ يزجي به سحابه

ومنها :

حررت في عشر ليال عقده ولم أطق حتى استعنت جده

(٦٤٠ هـ) وتوجد نسخة مخطوطة من هذه المنظومة بمكتبة فينا رقم (٤٨٠) . قد سقطت من أولها عدة أوراق .

وينسب بروكلمان هذا الكتاب أيضاً إلى عبد المؤمن الصاغاني[١] وهناك رأي آخر يذهب إلى أن المنظومة لابن الهبارية وإنما أكملها بعده عبد المؤمن الصاغاني[٢] .

وكان آخر من نظم الكتاب باللغة العربية الشاعر « الشيخ محمد عبد الرحيم تره » المتوفى عام (١٩٣١) وسمى كتابه : زعموا أن . . . أو كليلة ودمنة منظوم « وحيث إن حكايات كتاب كليلة ودمنة تبدأ بجملة (زعموا أن) سمى منظومته «زعموا أن» وقد قدم لها كل من أمير الشعراء أحمد شوقي والدكتور محمد حسنين هيكل وشاعر القطرين خليل مطران ثم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وقد قسم الشاعر منظومته إلى قسمين القسم الأول نظم فيه الشاعر مضامين أبواب الكتاب أو بمعنى أخص الحكايات الرئيسية في الكتاب ، والقسم الثاني نظم فيه مختارات من الحكايات الفرعية التي تحتوي عليها أبواب الكتابة .

ترجمات اللغات الحية :

١ ـ الترجمة التبتية .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣ / ٩٦ ترجمة عبد الحليم النجار طبعة القاهرة .

(٢) انظر كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين ١ / ٢٣١ .

٢ ـ الترجمة الفهلوية ١٥٦٠ م .
٣ ـ الترجمة السريانية الأولى .
٤ ـ الترجمة العربية لابن المقفّع ٧٥٠ م.
٥ ـ الترجمة اليونانية لسيمون ست ١٠٨٠ م .
٦ ـ الترجمة السلافونية القديمة .
٧ ـ الترجمة الإيطالية ١٥٨٣ م .
٨ ـ الترجمة السريانية الحديثة ق . (١٠ ـ ١١) .
٩ ـ الترجمة والإنجليزية لفالكونر ١٨٨٥ م
١٠ ـ الترجمة اللاتينية الشعرية ق . (١٣) .
١١ ـ الترجمة العبرانية لابن اليعازر ق (١٣) .
١٢ ـ الترجمة العبرانية الثانية .
١٣ ـ الترجمة اللاتينية (دريكتريوم) .
١٤ ـ الترجمة الإيطالية لدولي ١٥٥٢ م .
١٥ ـ الترجمة الإنجليزية لنورث ١٥٧٠ م .
١٦ ـ الترجمة الإسبانية الحديثة ١٤٩٣ م .
١٧ ـ الترجمة الإيطالية ١٥٤٨ م .
١٨ ـ الترجمة الفرنسية ١٥٥٦ م .
١٩ ـ الترجمة الألمانية ١٥٨٣ م .
٢٠ ـ الترجمة الدانماركية ١٦١٨ م .
٢١ ـ الترجمة الهولندية ١٦٢٢ م .
٢٢ ـ الترجمة اللاتينية لريمونا ١٣١٣ م .
٢٣ ـ الترجمة الإسبانية القديمة ١١٢٥ م .

٢٤ ـ الترجمة التركية «همايون نامه» أول القرن (١٦) .
٢٥ ـ الترجمة الفرنسية التي بدأها جالاند وأتمها كاردون ١٧٧٨ م .
٢٦ ـ الترجمة الفارسية «أنوار سهيلي» آخر القرن (١٥) .
٢٧ ـ الترجمة الفارسية « لنصر الله » ١١٢٠ م .
٢٨ ـ الترجمة الملقية .
٢٩ ـ الترجمة الإنجليزية ١٨١٩ م .
٣٠ ـ الترجمة الروسية ١٨٨٩ م .

آراء في ابن المقفَّع :

ذكرت طائفة من الكتاب والشعراء ابن المقفَّع بالمدح والإعجاب والثناء نورد من آرائهم بعضها هنا .

١ ـ يقول جعفر بن محمد بن حذار الكاتب أحد وزراء الدولة الطولونية المتوفى عام (٢٦٧ هـ) في مدح أحد أصدقائه :

يا كسرويا في القديـ ـم وهاشميا في الولاء
يا ابن المقفَّع في البيـ ـان ويا إياساً في الذكاءِ[1]

٢ ـ ويقول يحيى بن خالد البرمكي الوزير الذي كان له حظ وافر في البلاغة وباع طويل في فن الكتابة : « إن أربعة لم يدرك مثلهم

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢ / ٣٨٧ طبعة دار الكتب العلمية ١٩٩١ .

في فنونهم » وهم : الخليل بن أحمد ـ عبد الله بن المقفَّع ـ أبو حنيفة ـ الفزاري محمد بن إبراهيم الكوفي[1] .

٣ ـ ويقول أبو تمام في قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب :

ولقد شهدتك والكلام لآلىء ... صرف فبكر في النظام وثيبُ
فكأن قساً في عكاظ يخطب ... وكأن ليلى الأخيلية تندبُ
وكثير عزَّة يوم بين ينسب ... وابن المقفَّع في التيمية يسهب[2]

٤ ـ وروى ابن الفقيه في بلاغة ابن المقفَّع نقلاً عن لسان أحمد بن يوسف قال : ألفاظه معان ، ومعانيه حكم ، فصل خطابه شفاء ، وخصل بيانه كفاء ، وروى أيضاً نقلاً عن لسان جعفر بن يحيى البرمكي : عبد الحميد أصل ، وسهل بن هارون فرع وابن المقفَّع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر وكلهم كانوا من الكتاب البارزين في فنهم المشهورين برشاقة قلمهم[3] .

٥ ـ ونقل عن أبي الفياء الشاعر أنه سمع بعض كلام ابن المقفَّع

---

(١) المصدر السابق ٥ / ٧٩ .

(٢) انظر ثمار القلوب للثعالبي صفحة ١٨٥ وديوان أبي تمام صفحة ٤٩ وما بعدها .

(٣) انظر البلدان لأبي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه صفحة ١٩٤ طبعة ليدن عام (١٣٠٢ هـ) .

فقال : «كلامه مديح ولسانه فصيح . وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، وروض ممطور[1] .

٦ ـ وروى جلال الدين السيوطي نقلاً عن أبي الطيب عبد الواحد اللغوي : « قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفّع ولا أجمع»[2].

(١) انظر مراتب النحويين لأبي الطيب عبد الواحد اللغوي صفحة ٢٨ طبعة القاهرة والمزهر للسيوطي ٢ / ٢٤٩ طبعة القاهرة تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم .

(٢) المصدر السابق صفحة ٢٨ والمزهر ٢ / ١٠٥ وما بعدها .

الخاتمة

هكذا أصبح الفن الذي ابتدأه ابن المقفَّع دقيقاً ومتأنقاً كما كان له الأثر الكبير في تطوير الحياة الاجتماعية والأدبية والسياسية في البيئة العربية ، ويمكن القول إن عصر ابن المقفَّع الأدبي كان مستولياً على الفن بكامله وقد أزهر الفترات وأخصب العصور في تاريخ الأدب العربي .

ـ ولقد اعتبر ابن المقفَّع رائداً من رواد فن الكتابة في العصر العباسي الأول وزعيماً للطبقة الأولى من الكتّاب ، وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست أسماء طائفة كبيرة من المترجمين ، وعدداً ضخماً من أسماء الكتب التي ترجمت في العصر العبّاسي ، وكان لابن المقفّع دور كبير في هذا المجال حيث ترجم بعض عيون الأدب الفارسي إلى العربية .

وهنا يقول عبد اللطيف حمزة: « ولست أدري ماذا كان يكون مصير الأدب الفارسي لو قد عاش له ــ ابن المقفّع ــ الذي لم يكن قد تجاوز الأربعين» ويقول: «أجل عبدالله بن المقفّع هو البطل الذي يعتبر بحق مفخرة للشرق» فلا عجب بعد هذا كله بأن يترك ابن المقفع أثر كبير في العالم العربي .

وإذا كانت الأفكار التي نشرها تسربت إلى فكر الشعراء وفلسفة

الفـلاسفة ، وتـآليف الكتّاب في مختلف حقـول الفكر والأدب فهـو البطل الذي نعتبره بحق من أولئك النفر القليلين الذين يطلق عليهم اسم قادة الفكر .

لقد ترك ابن المقفّع آثار تـزخر بهـا المكتبة العـربية والتي تعتبـر حجـر الأساس في صـرح الأدب العربي ، فـلا يزال مجـال البحث والتحقيق عن ابن المقفّـع وآثـاره مفتـوحـاً لأي بـاحث عن هـذا الكـاتب ، يمكن الإسهـاب في ثنـايـا دراسـة أخـرى في أدب ابن المقفّع .

والله الموفق

فهرس المصادر والمراجع

ـ ابن المقفّع	خليل مردم	ط. دمشق ٩٣٠
ـ ابن المقفّع	حنا الفاخوري	القاهرة
ـ ابن المقفّع	عبد اللطيف حمزة	دار الحديث للنشر د. ت.
ـ آثار ابن المقفّع	ط. دار الكتب العلمية	
ـ الآثار الباقية	البيروني	القاهرة
ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء	جمال الدين القفطي	القاهرة ١٣٢٦ هـ
ـ الأخبار الطوال	أبي حنيفة الدينوري	ليدن ١٨٨٨
ـ أدباء العرب في الأعصر العبّاسية	بطرس البستاني	دار الثقافة بيروت ١٩٦٨
ـ الأدب القصصي عند العرب	موسى سليمان	
ـ الأدب الكبير والصغير ورسالة الصحابة	تحقيق يوسف أبو حلقة	بيروت د. ت.
ـ أمراء البيان	محمد كرد علي	القاهرة/ ط. ثانية
ـ إيران في عهد الساسانيين	كرستن مسن. ترجمة د. يحيى الخشاب	دار الكتب العلمية ١٩٨٧
ـ البداية والنهاية	ابن كثير	
ـ البلدان	أبي بكر أحمد الهمداني ابن الفقيه	ليدن/ ١٣٠٢ هـ
ـ تاريخ الأدب العربي	بروكلمان/ ترجمة عبد الحليم النجار	

ـتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء	حمزة الأصفهاني	برلين/ ليبزيك/ القاهرة
ـتاريخ طبرستان		
ـ التحرير والتحبير	نشره الدكتور حفني محمد شرف	شركة الإعلانات الشرقية/د. ت.
ـالتنبيه والإشراف	للمسعودي	القاهرة ١٩٣٨
ـثمار القلوب	الثعالبي	
ـحضارة العرب	د. غوستاف لوبون	ترجمة عادل زعيتر ١٩٦٤
ـخلاصة تاريخ العرب	سيديو	دار الآثار بيروت/ ١٤٠٠ هـ
ـديوان أبي تمام	تحقيق عبد الحميد يونس	القاهرة ١٩٤٢
ـديوان أبي نواس	تحقيق محمود واصف	القاهرة ١٨٩٨
ـديوان المعاني	أبي هلال العسكري	
ـرسائل البلغاء	محمد كرد علي	القاهرة ١٩١٣
ـسرح العيون في شرح رسالة	ابن زيدون	القاهرة
ـصبح الأعشى	القلقشندي	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧
ـالصناعتين	أبي هلال العسكري	
ـضحى الإسلام	أحمد أمين	القاهرة ١٩٣٦
ـعبد الله بن المقفّع	محمد سليم الجندي	القاهرة د. ت.
ـعبد الله بن المقفّع	محمد غفراني الخراساني	دار القومية للطباعة والنشر ربيع الأول ١٣٣٩
ـالعربية	يوهان فك. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار	
ـالعقد الفريد	ابن عبد ربه	القاهرة
ـعيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب العلمية د. ت.
ـغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم	للثعالبي	ط. باريس وليبزيك

ـ الفهرست	لابن النديم	
ـ القاموس المحيط	للفيروزآبادي	دار الكتب العلمية
ـ كشف الظنون	حاجي خليفة	
ـ كليلة ودمنة	ابن المقفع تعليق الياس خليل زكريا	
ـ كليلة ودمنة	تحقيق نائل المرصفي	
ـ كليلة ودمنة	تحقيق خليل اليازجي	
ـ مجلة الدارسات الأدبية	العدد الأول العام الثالث	ط. بيروت ١٩٥٩
ـ المجلة الملكية	أكاديمية العلوم ـ العدد الثامن	
ـ محاضرات الأدباء	للراغب الأصفهاني	القاهرة
ـ مراتب النحويين	أبي الطيب عبد الواحد اللغوي	القاهرة
ـ مروج الذهب	المسعودي ـ تحقيق باربنيه دي مينار	ط. باريس
ـ المزهر	السيوطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم	القاهرة
ـ مضاهاة أمثال كليلة ودمنة	تحقيق د. محمد يوسف نجم	بيروت ١٩٦١
ـ معجم الأدباء	ياقوت الحموي	دار الكتب العلمية ١٩٩١
ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي	دار صادر ـ بيروت ـ د. ت
ـ معجم المطبوعات العربية	يوسف الياس سركيس	مصر ١٩٢٦
ـ مفتاح السعادة	طاش كبري زاده	
ـ المفيد في الأدب العربي		المطبعة الإفريقية بيروت / ١٩٨٠
ـ المنجد في اللغة والإعلام	الطبعة (٦)	دار المشرق بيروت
ـ من حديث الشعر والنثر	طه حسين	القاهرة
ـ نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة	ابن الهبارية ـ بتحقيق الخوري نعمة الله الأسمر الماروني	ط بيروت ١٩٠٠
ـ النثر الفني	زكي مبارك	القاهرة
ـ وفيات الأعيان	ابن خلكان	القاهرة

المراجع الأجنبية

- ابن المقفّع — عباس إقبال «بالفارسية» — ط. برلين
- بنجاتنترا — ترجمة الدكتور ايندوشيكهر — جامعة طهران / د. ت.
- سبك شناسي — فلك الشعراء بهار — طهران
- مجلة كاوة — الفارسية — السنة الخامسة - عدد ١١ ط. برلين

منتخب كليلة ودمنة — عبد العظيم قريب — وزارة التربية والتعليم الإيرانية
، بهرا منشاهي

—Pars version is Arabica Libri Calaila Wa Dimna edita a b H.A. schultens

— Noldeké's Introduction to tabary as translated by Nariman Bombay - 1918 .

—The Cana bidge medieaval History V.II p.103

- حماسة سرائي درايران — د. ذبيح الله صفا — ط. طهران

فهرس المحتويات

الإهداء ٣
المقدمة ٥
الفصل الأول
الحياة السياسية ٩
الحياة الاجتماعية ١٣
الحياة الاقتصادية ١٦
الحياة الأدبية ١٨
اللغة العربية ٢٢
التجديد في الأدب العربي ٢٤
الفصل الثاني
نسبه ٢٨
مولده ونشأته ٢٨
موطنه ٣٢
وفاته وآثاره ٣٣
الفصل الثالث
مثل القبَّرة والفيل (كليلة ودمنة) ٣٦
الأدب الصغير ٤٩
الأدب الكبير ٥٢
الخداينامه ٦٩
التاج ٧٨

آثين نامه ٨٠
البنكش والسكيسران ٨٣

الفصل الرابع

النثر الفني في الأدب العربي ٨٦
خصائص أسلوب ابن المقفّع ٩١

الفصل الخامس

كليلة ودمنة وموقعه في التراث العالمي ١٠٠
طبعات الكتاب المشهورة ١٠١
أبواب الكتاب ١٠٥
أبواب النسخة السريانية القديمة ١٠٧
ترجمات الكتاب المختلفة ١٠٩
ترجمات اللغات الحية ١١٥
آراء في ابن المقفّع ١١٧
الخاتمة ١٢٠
فهرس المصادر والمراجع ١٢٢

لا شكّ أنّ القارىء العربيّ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاطِّلاع على تراثه الفكريِّ العظيم المتمثِّل بالأدب والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلاّ لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعية. فكانت هذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتابتها مجموعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحَرّوا فيها السلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.